

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
قسم التاريخ وعلم الآثار

الأوبئة والمجاعات في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن
18م وبداية القرن 19م
- دراسة اجتماعية -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د.)
في التاريخ الحديث

إعداد الطالب: بولغيث محمد الصديق
إشراف: أ.د/ حمدادوبن عمر
أعضاء لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	مؤسسة الانتماء	الصفة
أ.د/ دادة محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1	رئيسا
أ.د/ حمدادوبن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1	مشرفا ومقررا
د.رنيمة أحمد	أستاذ محاضر "أ"	جامعة وهران 1	مناقشا
أ.د/ مكحلي محمد	استاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أ.د/ بن صحراوي كمال	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	مناقشا

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2021-2022م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَادْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين الحبيبين سندي في السراء والضراء

إلى إخوتي وأخواتي وإلى جميع الأهل والأقارب.

إلى مشايخي وأساتذتي وإلى كل شيوخ الزوايا والمدارس القرآنية

و إلى كل حفظة كتاب الله وطلبة العلم

عبر مختلف أنحاء هذا الوطن.

إلى أساتذتي عبر مختلف الأطوار التعليمية،

وكل أخ أو صديق من جمعتنا معهم المودة الصادقة.

شكر و عرفان

الحمد لله حقّ حمده أحمده سبحانه وتعالى وأثنى عليه

ولا أحصي ثناء عليه، والصلاة والسلام على سيدنا وحبیبنا محمد

صلی الله علیه وسلم.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف: أ.د. حمدادو بن عمر الذي تشرفت بإشرافه على أطروحتي، والذي لم يبخل عليّ بنصائحه القيّمة وتوجيهاته لإتمام هذا العمل المتواضع، كما لا أنسى الأستاذ الفاضل: أ.د. دادة محمد على مساعدته وتوجيهاته ونصائحه القيّمة

كما أود أن أشكر الأستاذة: أ.د. العقون أم الخير التي كانت دائماً سنداً لنا بتوجيهاتها وحرصها على إتمام أعمالنا، كما لا ننسى في هذا المقام كل أساتذة قسم التاريخ بجامعة وهران 1، وإلى كل زملائي وأصدقائي الذين ساعدوني في كتابة هذه الأطروحة.

قائمة المختصرات:

1- باللغة العربية:

- تر:ترجمة
- تح:تحقيق
- تع:تعليق
- تق: تقديم
- ج:الجزء
- ط: الطبعة
- د.ط:دون طبعة
- د.ت:دون تاريخ
- ص:الصفحة
- ص ص:من الصفحة ...إلى الصفحة
- مج:المجلد
- ع:العدد
- ه:هجري
- م:ميلادي

2- باللغة الفرنسية:

- المصدر أو المرجع نفسه: **IBIDEM** : **ibid**
- المصدر السابق: **ouvrage précédemment cité** : **op.cit**
- الصفحة: **la page** : **P**
- من الصفحة...إلى الصفحة: **de la page...a la page** : **P P**
- العدد: **Numéro** : **N°**
- المجلة الإفريقية: **revue Africaine** : **R.A**
- مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط **revue de l'occident musulman et de la méditerrané** : **r.o.m.m**

المقدمة

تعتبر الدراسات التاريخية عاملا مهما في رقيّ و تطور المجتمعات وأداة فاعلة في بناء وترسيخ الذاكرة الجماعية للأمم، وبالرغم من مساهمة الإنسان في صناعة أحداث التاريخ إلا أنّ الماضي البشري أثبت مساهمة الطبيعة في قهر إرادة الإنسان وتحويل مجرى التاريخ ممثلة في قضاء الله وقدره.

وقد وثقت المصادر الكثير من المعارف التاريخية في أشكال متعدّدة يمكن أن تكون موضوع للدراسة التاريخية المعاصرة وفق الأدوات المتاحة، ومن بين هذه المواضيع ظاهرة الأوبئة والمجاعات، فخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين شهدت الجزائر العثمانية(1519-1830م) انتشار الأوبئة بصفة متكرّرة، إضافة إلى ظهور المجاعات في العديد من الفترات مع تزامن الظاهرتين في نفس الوقت ما كان يؤدّي إلى تأزّم الأوضاع.

في مستهل الحديث عن موضوع الدراسة والموسوم بـ: "الأوبئة والمجاعات في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر-دراسة اجتماعية-"شاءت الأقدار أن تتصادف فترة تحرير هذا البحث بحلول وباء كورونا الخطير (covid 19) الذي أكّد لنا أن الأوبئة لا تزال تهدّد حياة المجتمعات بالرغم من التطور الكبير في المجال الطبي الذي تشهده البشرية اليوم، ثمّ إن تاريخ الأزمات الصحية قد أثبت عبر مختلف العصور حجم المآسي والتأثيرات التي أحدثتها الأوبئة.

أمّا بالنسبة للإطار المكاني للموضوع وهو بايلك الغرب¹ الجزائري وجب التنبيه إلى الموقع الجغرافي الذي يميّزه وبالأخص وجوده في الضفّة الجنوبية الغربية للبحر المتوسط (القرب من أوروبا)، الذي فرض ظروفًا خاصة في المنطقة بحكم الاحتلال الإسباني لوهـران والمرسى الكبير، ومجاورة المغرب الأقصى من الجهة الغربية، إضافة إلى أنّ الساحل المطل على البحر المتوسط كان يشهد دائما حركة بشرية واقتصادية نشطة ومؤثرة على مختلف الجوانب الحياتية .

¹ هناك العديد من المصادر التي تحدد جغرافية البايك، ويمكن القول بأن حدوده تمتدّ من واد الشلف شرقا إلى واد ملوية غربا. ينظر: فتيحة الواليش الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994م، ص16.

- أهمية الموضوع:

تعتبر الدراسات المتعلقة بالآزمات الصحية والمعيشية التي تتناول فترة العهد العثماني قليلة إذا ما قورنت بالدراسات السياسية والعسكرية، لذلك تكمن أهمية موضوع الدراسة في كونه مساهمة في إثراء جزئية من الجزئيات الهامة في تاريخ المجتمع الجزائري في حيز جغرافي جدير بالدراسة كونه تعاقبت عليه مختلف المحن والآزمات من أوبئة وأمراض مهلكة و مجاعات وكوارث طبيعية.

كما أن للموضوع الأهمية البالغة في كشف مدى التفاعل بين السلطة والمجتمع تجاه الآزمات، كما يعكس الحياة الثقافية للمجتمع وسلوكه في مواجهة الأوضاع الصحية والمعيشية، إضافة إلى أن الموضوع يتطلب استخدام العديد من المقاربات، وهو ما حاولنا من خلاله ملامسة العديد من الجوانب كالجانب الطبي والاقتصادي والديموغرافي

وتكمن أهمية هذا الموضوع كذلك في كونه متجدد في تاريخ البشرية ليكون خير دليل على صيرورة وحركية التاريخ، فالأوبئة والمجاعات آزمات متكررة تتجلى حالياً في وباء كورونا الذي جعل مختلف البلدان في حالة استنفار قصوى، بل وأظهر عجز أكثر الأمم تطوراً في المجال الصحي على مجابهة هذه الجائحة .

وخير ما نستدل به تلكم الأرقام المعلنة حول وباء كورونا منذ ظهوره في الصين شهر ديسمبر 2019م، وانتقاله بعدها إلى مختلف أنحاء العالم، فقد تجاوزت حصيلة الوباء من ديسمبر 2019م، إلى منتصف شهر أبريل 2020م، أكثر من 150 ألف وفاة ومليونين و200 ألف إصابة في مختلف أنحاء العالم.

وقد تسبب هذا الوباء في هزات اجتماعية واقتصادية كبرى تحتم علينا ربط الواقع المرير بالماضي المحزن لنستشعر مدى المآسي التي تحدثها هذه الآزمات عبر مختلف العصور.

- أهداف الموضوع :

من خلال دراسة هذا الموضوع هناك محاولة لإعطاء صورة تقريبية حول موضوع الأوبئة والمجاعات في بايلك الغرب من مختلف الزوايا الممكنة، انطلاقا من التطرق إلى دراسة التطور التاريخي لهذه الأزمات، ومرورا بردود الفعل المختلفة، وأخيرا بتأثيرات هذه الكوارث وانعكاساتها على مجتمع بايلك الغرب الجزائري آنذاك.

- دوافع اختيار الموضوع:

اختير هذا الموضوع لعدة اعتبارات أهمها:

-الدوافع العلميّة:

- محاولة تسليط الضوء على هذا النوع من المواضيع ذات القيمة العلمية والحضارية.
- يعتبر موضوع الأوبئة والمجاعات في العهد العثماني من المواضيع التي لم تأخذ قسطها الكافي من الدراسة والبحث في الأبحاث الأكاديمية.
- محاولة مجارات النسق العام للبحوث الحديثة والتي أصبحت تتجاوز الطرح السطحي للأحداث وتبتعد عن التاريخ السردى الجاف ودراسة الوقائع الملامسة للمجتمعات بمختلف مكوناتها.
- السعي لإبراز الارتباط الوثيق بين علم التاريخ ومختلف العلوم المساعدة له والذي يتجلى في هذا الموضوع الذي يضم الجانب الطبى والاجتماعى.

- الدافع الشخصي:

بالإضافة إلى هذه الدوافع هناك رغبة في اختيار الموضوع عن قناعة متأصلة وقد اخترت هذا الموضوع كوني أحبّذ البحث والاطلاع على المواضيع الاجتماعية بكل متعلقاتها.

إضافة إلى المساهمة في تدعيم البحث في هذا المجال، وتدعيم رصيد البحوث العلمية المنجزة، ونحن نلاحظ الحركية العلمية التي تشهدها بعض الجامعات ومخابر البحث العلمي والتي بدأت بتنظيم بعض الملتقيات والأيام الدراسية التي تعنى بتاريخ المجاعات والأوبئة تزامنا مع ظهور وباء كورونا.

- إشكالية البحث:

تتطلب هذه الدراسة الإطلاع على التطور الكرونولوجي لهذه الأزمات مع ما صاحبها من تفاعل سياسي واجتماعي وانعكاساتها المختلفة، للإجابة على أمور جوهرية تمثلها في الإشكالية التالية :

- ما هي أهم محطات ظهور الأوبئة والمجاعات في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م وإلى غاية 1830م؟ وما هي أبرز انعكاساتها ؟

لنتفرع عن الإشكالية الرئيسية تساؤلات عديدة منها:

-التساؤلات الفرعية :

- ما هي أبرز الأزمات الصحيّة والمعيشية التي وقعت في بايلك الغرب الجزائري ؟
 - ما هي العوامل المساعدة على ظهورها وانتشارها، وما مدى تفاعل المجتمع والسلطة مع هذه الأزمات؟
 - ماهي أبرز المؤلفات المحلية والأجنبية التي تناولت موضوع الأوبئة والمجاعات خلال العهد العثماني ؟
 - فيم تمثلت الآثار والانعكاسات المترتبة جرّاء حصول هذه الأزمات ؟
- #### -منهج الدراسة :

فرضت طبيعة الموضوع استخدام مناهج متعددة في هذه الدّراسة انطلاقا من المنهج التّاريخي الوصفي، مع الاعتماد على المقاربة العلمية الطّبيّة لدراسة الأوبئة المنتشرة و المقاربة الاقتصادية لدراسة ظاهرة المجاعة من خلال النصوص المختلفة الواردة في المصادر، كما أنّ

طبيعة الموضوع تلزم علينا عدم الاكتفاء بسرد ووصف الأحداث دون التطرق إلى أسبابها ونتائجها.

كما نهجت الدراسة في بعض محطات البحث التحليل الكمي من خلال تمثيل بعض المعطيات العددية ضمن جداول تعريفية مع التركيز على عرض النتائج والتعليق عليها.

- الدراسات السابقة:

بالنسبة للدراسات التي تناولت موضوع الأزمات الصحية والمعيشية لاحظنا بعض النقص في هذا الجانب وما أنجز من دراسات أكاديمية قد لا يكون كافيا لتغطية هذا الجانب المهم من تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني.

وعليه نذكر ما أتيج لنا من دراسات والتي أولها الدراسة الموسومة ب: "الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871" وهي عبارة أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر منجزة من طرف الباحثة فلة القشاعي من جامعة الجزائر سنة 2004م، ثم تم طبعها على شكل كتاب بدعم من وزارة الثقافة سنة 2013م².

وأهم ما ميز هذه الدراسة تناولها للوضع الصحي لكافة أنحاء الإيالة الجزائرية مع طول الفترة الزمنية لكن ما يلاحظ عليها هو تركيزها على الوضع الصحي في مدينة الجزائر واعتمادها شبه الكلي على المصادر الفرنسية وتحليلاتها.

وكذلك نقف على دراسة أخرى موسومة ب" المجاعات و الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700-1830م، وهي أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من انجاز الباحث خير الدين سعيدي في جامعة قالمه سنة 2019م³، وأهم ما احتوته هذه الدراسة الأزمات الصحية والغذائية لعموم الإيالة الجزائرية مع الإعتماد على عدد معتبر من الوثائق الأرشيفية في دراسته والتي تركز على أوضاع سكان المدن أكثر من الأرياف وهو ما لا يمكن

² فلة القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871م، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013.
³ خير الدين سعيدي، المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700-1830م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة 08 ماي 1945 قالمه، 2018-2019.

أن يعطي التصور الفعلي لهذه الأزمات خصوصا وأن غالبية سكان الإيالة كانوا يقطنون بالأرياف .

كما اعتمدنا على دراسة أخرى و الموسومة ب"الكوارث الطبيعية وآثارها في الجزائر خلال العهد العثماني" وهي أطروحة دكتوراه للباحث حفيان رشيد والمناقشة في جامعة قسنطينة خلال سنة 2021م وقد تناولت الدراسة كافة فترات الوجود العثماني مع مسح عام لمختلف الكوارث الطبيعية التي حلت بالبلاد، وما ميّز هذه الدراسة هو التطرق لمختلف الكوارث الطبيعية التي حلت بالجزائر دون التركيز على موضوع الأوبئة والمجاعات .

أما بالنسبة لرسائل الماجستير فهناك بعض البحوث المعالجة للموضوع ومنها الرسالة الموسومة ب "الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830(مقاربة اجتماعية)" وهي رسالة نوقشت بجامعة وهران 1 سنة 2015 م وهي من انجاز الباحث بوحجرة عثمان.

و إضافة إلى هذه الدراسات اعتمدنا على مجموعة من المقالات العلمية والتي تناولت بعض الجزئيات من موضوع الدراسة وقد تمّت الاستفادة من هذه الدراسات في أغلب حيثيات الموضوع سواء من الناحية المنهجية أو من خلال المعطيات التاريخية خصوصا وأن الباحثين قد وظفوا فيها الوثائق الأرشيفية التي أتاحت لهم.

- خطة البحث:

بناء على ما توفر لدينا من مادة علمية، قسمنا بحثنا هذا إلى مقدمة ومدخل حاولنا فيه التطرق للجانب المفاهيمي، ثم أربعة فصول ثم خاتمة جمعنا فيها جملة من الاستنتاجات وقد كانت خطتنا كالآتي:

- المقدمة:

وقد عرّفنا خلالها بالموضوع مع إبراز أهميته ودواعي اختياره مع عرض الإشكالية التي أردنا معالجتها وأهم المصادر والمراجع المعتمدة في بحثنا.

- المدخل :

في مدخل هذه الدراسة حاولنا التطرّق إلى أبرز مفاهيم الدراسة سواء من خلال شرح مفهوم الوباء والمجاعة وكذلك التعريف بعلم الأوبئة وطريقة التعامل مع الأوبئة من المنظور الإسلامي من خلال النصوص الشرعية أو من خلال آراء الفقهاء وإبراز العلاقة بين الأزمات الغذائية والأزمات الصحية وغيرها .

- الفصل الأول :

تطرّقنا فيه إلى التعريف بالإطار العام لبائلك الغرب الجزائري انطلاقا من الموقع الجغرافي وخصائصه العامة، ثم ركّزنا على الجانب الاجتماعي من خلال دراسة التركيبة الاجتماعية في المدن والأرياف سواء من حيث مكّوناتها أو من خلال المستوى المعيشي لمختلف الفئات، كما تطرّقنا إلى الجانب الاقتصادي وخصائصه خلال العهد العثماني والعوامل المتحكمة فيه وأخيرا أعطينا لمحة حول الوضع الثقافي.

- الفصل الثاني :

تناولنا فيه أهم المجاعات والأوبئة التي شهدتها بايلك الغرب مع ترتيبها زمنيا، كما تطرّقنا إلى خصائص هذه الأزمات والعوامل المؤثرة في حصولها.

وقد حاولنا أن نستعرض العوامل المباشرة والغير مباشرة سواء الطبيعية أو البشرية ومنها الحركية التجارية في الموانئ ودور الحجاج والأسرى وغيرهم، إضافة إلى العوامل الطبيعية ودورها في انتشار الأوبئة وحصول المجاعات كالجفاف والجراد والرطوبة وغيرها، والتي ساهمت في ظهور هذه الأزمات معتمدين في ذلك أساسا على النصوص والإشارات الواردة في المصادر المحلية والأجنبية .

- الفصل الثالث:

تطرّقنا خلال هذا الفصل إلى الأساليب والإجراءات المتّخذة من طرف السلطة والمجتمع في مواجهة الأوضاع الصحية والأزمات الغذائية.

وقد حاولنا الإشارة إلى وضعية الطب ومتعلقاته خلال هذه الفترة داخل مجتمع بايلك الغرب خصوصا والمجتمع الجزائري عموما مع عرض نماذج من ردود الفعل الإيجابية والسلبية للسلطة والمجتمع وتفاعلهم من خلال ظهور هذه الأزمات.

وقد رأينا أن الخلفيات الثقافية والمعتقدات الدينية تحكمت بشكل أساسي في توجيه سلوك المجتمع خاصة فيما يتعلق بالأزمات الصحية.

كما حاولنا رصد أبرز ما تم تأليفه في المجال الطبي والمصادر التي تناولت هذه الأزمات

- الفصل الرابع:

حاولنا من خلاله الإشارة إلى الآثار المترتبة جراء حصول الأوبئة والمجاعات على مختلف الجوانب سواء الاجتماعية والنفسية أو الاقتصادية أو الجانب العسكري، مع الإشارة إلى أهمية التأريخ للأزمات في نهاية هذا الفصل خصوصا مع الأزمة الصحية الراهنة.

وقد أدت هذه الكوارث إلى تفكك البنية الاجتماعية وركود النشاط الاقتصادي والعلمي كما كانت عاملا من عوامل انهيار الحكم العثماني .

وفي خاتمة هذه الدراسة خرجنا بمجموعة من الاستنتاجات حاولنا الإجابة على تساؤلات موضوعنا كما أردنا أن نبين من خلالها التصورات التي توصلنا إليها.

- المصادر والمراجع المعتمدة:

لا يستغني الباحث في تاريخ الجزائر الحديث كونها مصدرية سواء محلية أو أجنبية، وإن كانت المادة العلمية في موضوع بحثنا لا تعدو في كثير من الأحيان مجرد إشارات عابرة لموضوع المجاعات والأوبئة، وعلى العموم فإن المادة في هذه الجزئية شحيحة بالمقارنة بمواضيع أخرى، ومن أهمها ما يلي:

- المصادر والمراجع المحلية (الجزائرية):

اعتمدنا في دراستنا على مجموعة من المصادر هي كالآتي:

- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لمؤلفه أحمد بن سحنون الراشدي(توفي حوالي منتصف ق 19م)

- تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر الوهراني (توفي 1870م).
- طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، للأغا بن عودة المزاربي (توفي 1897م) وهذا الكتاب مؤلف من جزأين اعتمدنا نحن على الجزء الأول منه.
- دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران للكاتب محمد بن يوسف الزباني (توفي 1902م).
- وما يمكن قوله أنّ هذه المصادر لا غنى عنها في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لبابلك الغرب الجزائري والوقائع المتزامنة مع الصراع ضد الاحتلال الإسباني، وقد غطّت هذه المصادر أجزاء هامة من تاريخ المنطقة، لكن فيما يتعلق بالأوبئة والمجاعات لا تتضمن إلا إشارات عابرة لها.
- كما اعتمدنا على بعض المصادر التي تعالج موضوع الأوبئة ومن بينها:
 - إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز من الوباء لحمدان بن عثمان خوجة الذي يعالج فكرة أساسية تتمثل في ضرورة الاستفادة من التجارب الأوروبية في ما يتعلق بضرورة تطبيق الحجر الصحي.
 - إضافة إلى مجموعة من المراجع التي اعتمدنا عليها في مختلف أطوار هذا البحث نذكر منها ما ذكرناه سابقا عند ذكرنا للدراسات السابقة ومنها البحوث الجامعية التي تعالج موضوع بحثنا كأطروحة الباحثة فلة القشاعي وأطروحة الباحث خير الدين سعيد، إضافة إلى أطروحة الباحث حفيان رشيد والتي تعالج موضوع الكوارث الطبيعية خلال العهد العثماني.
 - إضافة إلى بعض المراجع الأخرى ككتاب "الأوبئة والمجاعات في الجزائر" للكاتب مصطفى خياطي الذي بالرغم من عدم تخصصه في المجال التاريخي كونه طبيبا إلا أنه ساهم في إثراء البحث التاريخي في هذه الجزئية ولهذا المؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان "الطب والأطباء في الجزائر خلال العهد العثماني" والذي استفدنا من محتواه العلمي والتاريخي.

كما استفدنا من بعض المراجع التي تعالج دراستنا من الناحية الزمنية لكن في بلدان أخرى ككتاب "تاريخ المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" للباحث محمد الأمين البزاز والذي استفدنا منه خصوصا في كيفية عرضة للأحداث وتحليلها كما أنه يذكر في الكثير من المرات انتقال الأوبئة من الجزائر إلى المغرب ويذكر الأسباب المؤدية لظهور الأوبئة وغيرها... .

كما اعتمدنا على مجموعة من المقالات التي عالجت موضوع بحثنا ومنها مقال للباحثة عائشة غطاس بعنوان "الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني"، وفي نفس السياق تقريبا اعتمدنا على مقال للباحث محمد الزين، "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات". وكذلك مقال للباحثة وافية نفطي بعنوان "مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني" وغيرها من المقالات التي تتعلق بموضوع بحثنا عموما.

- المصادر و المراجع الأجنبية(الفرنسية):

من الضروري الاعتماد علىالمصادر الأجنبية وبالخصوص الفرنسية التي تناولت الأزمات الصحية والغذائية التي مرّ بها المجتمع الجزائري ،فبالرغم من كونها حملت السلطة العثمانية مسؤولية ما كان يعانيه السكان من أزماتهم هو الأمر الذي كان من منطلق خلفيات استعمارية لدى الكثير من المؤرخين.

إلا أن هذه المؤلفات حملت في طياتها الكثير من المعلومات وما يميّزها عن المصادر الأجنبية هو أنها مصادر ثريّة بالمعلومات والأرقام ودراسة التعاقب الزمني للمجاعات والأوبئة وتأثيراتها المختلفة عكس المصادر المحلية التي كانت تكتفي بالإشارات العابرة لمثل هذه الأحداث دون إعطاء أي تفاصيل أو أرقام واضحة.

ومن بين المصادر الهامة نذكر كتاب: "أدريان بربروجر" Adrien berbrugger بعنوان "mémoire sur la peste en Algérie" والذي نشر خلال سنة 1847 ضمن كتاب للمؤلف بييري "périer" بعنوان:

"Exploration scientifique de l'Algerie pendant les années 1840,1841,1842."

كما اعتمدنا على كتاب آخر مهم ضمن حقل دراسة الأزمات الصحية للكاتب قويون " j-l-G Guyon " بعنوان :

Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours

ويعتبر هذا الكتاب عرض كرونولوجي تاريخي وتفصيلي للاوبئة التي ظهرت في شمال إفريقيا عبر العصور، كما يركز الكاتب على الجزائر بشكل متكرر مع الإشارة إلى أسباب ظهور الأمراض وطرق انتقالها .

كما وقفنا على بعض المصادر الأخرى ككتاب هام لـ "ويلسن استرهازي" Walsin Esterhazy بعنوان :

"De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger"

وقد أفادنا هذا المصدر كثيرا كونه يعالج موضوع الأزمات الصحية والمعيشية خلال فترة بحثنا.

كما اعتمدنا على بعض المراجع والدراسات الأكاديمية كالدراسة المهمة للباحث "جين مارشيكا" Jean marchika والتي اعتمدنا عليها بصفة متكررة في كافة أطوار بحثنا، وقد كانت هذه الأطروحة بعنوان:

La peste en Afrique septentrionale, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830)

وقد كانت هذه الدراسة أطروحة دكتوراه في الطب نوقشت للحصول على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة الجزائر إبان فترة الإستعمار الفرنسي.

كما اعتمدنا على بعض المقالات المتاحة باللغة الفرنسية والتي بدورها أفادتنا كثيرا خصوصا فيما تعلق بالأرقام والاحصائيات الواردة فيها كونها تعالج قضايا جزئية ومن بينها مقال لـ"لوسيت فالنسي" بعنوان:

Calamites démographiques en "Tunisie et en méditerranée orientale au 18 et 19 siècle.

ومن باب الإنصاف نذكر بأن الدراسات الفرنسية قد غطت النقص الموجود في الدراسات المحليّة كما أنّها أكثر من ناحية الاهتمام بالموضوع رغم عدم التزام الحياد والموضوعية فيما يتعلق بالسلطة العثمانية وجهودها خلال الأزمات.

- صعوبات البحث:

خلال فترة بحثنا واجهتنا مجموعة من الصعوبات العلمية والظروف العامة المحيطة بالبحث العلمي عموما والمتعلقة أساسا بجائحة كورونا التي عطّلت صيرورة مختلف الجوانب الحياتية و التي تزامنت مع انجاز هذا البحث، فلا يخفى على الجميع تبعات هذه الأزمة وما لحقها من قرارات احترازية أدت إلى غلق الجامعات والمكتبات العمومية ما صعب من عملية البحث.

ولعدم الاسترسال في الحديث عن هذه الجزئية نعدد بعض الصعوبات العلمية فيما يلي:

- طبيعة الموضوع والذي يعالج قضية جزئية في المجال التاريخي تتعلق بأزمات المجتمع الصحية والمعيشية ما يصعب من عمليّة التفصيل في الأحداث التاريخية .
- معالجة الدراسة لمجال جغرافي لم ينل القسط الكافي من الدراسة فيما تعلق بالأوبئة والمجاعات وهو بابلوك الغرب الجزائري عكس مدينة الجزائر والتي ركّزت عنها المصادر الأجنبية على وجه الخصوص بحكم أنها عاصمة الإيالة ومركز إقامة الرحالة والدبلوماسيين في أغلب الأحيان.
- صعوبة الحصول على المعطيات العددية والإحصائيات الدقيقة المتعلقة بالأزمات (عدم الحصول على وثائق أرشيفية)، فالمعلومات المستقاة من المصادر والمراجع لم تكن تفصيلية بل كانت تقديرية للكثير من الجوانب المهمّة مثل معرفة تأثير المجاعات والأوبئة على المجتمع

والتي اضطررنا للحديث عن المجتمع في المناطق الأخرى لتشابه الخصائص العامة للمجتمع الجزائري.

الطالب: محمد الصديق بولغيث

يوم: 01 جانفي 2022.

المدخل

1- مفهوم الوباء والطاعون والعلاقة بينهما

2- الفرق بين الوباء والطاعون

3- التعامل مع الأوبئة من المنصور الاسلامي

4- المفاهيم الطبية الحديثة

يعتبر موضوع البحث والمتعلق بالأوبئة والمجاعات من المواضيع الجديرة بالدراسة كونها تسلط الضوء على ظاهرة تمس المجتمعات البشرية منذ القدم، وتكرر هذه الظاهرة محدثة تجليات متعددة الجوانب على الحياة الإنسانية.

وبما أنّ الموضوع يمسّ المجتمع فإنه لا يمكن التعرف على المجتمع إلاّ من خلال معرفة العوامل المتحكمة في بنية هذه المجتمع وطبيعة العلاقات القائمة بين أفرادها، وأهم عامل لدراسة المجتمعات هو معرفة الأوضاع الصحية والأحوال المعيشية، فسوء الأوضاع الصحية يؤثر على النمو الديموغرافي والرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي¹، مع ما يمكن أن يتشعب إليه مصطلح المجتمع في كل جوانبه فإن تداخل المنهج التاريخي مع علم الاجتماع أمر ضروري في العديد من المحطات².

ولنتناول موضوع الأوبئة والمجاعات وجب شرح مفاهيم الدراسة من خلال التعريف بالمصطلحين الأساسيين "الوباء والمجاعة" والعلاقة بينهما كالآتي:

1- مفهوم الوباء والمجاعة والعلاقة بينهما:

قبل الدخول في إعطاء لمحة عن بايلك الغرب نشير إلى تحديد المصطلحين الأساسيين لدراستنا وهما الوباء والمجاعة لغة واصطلاحاً كون المصادر المحلية سواء الطبية أو التاريخية تباينت نظرتها للأوبئة من حيث وصفها أو تشخيصها أو معرفة نوعها وهو ما سنبينه في هذا المدخل:

1-1- المجاعة:

- لغة:

1- ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر_تونس_طرابلس الغرب) من القرن العاشر الى الرابع عشر هجري (من القرن السادس عشر ميلادي حتى القرن التاسع عشر ميلادي)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية 31، قسم التاريخ كلية الآداب، جامعة الكويت، 2010، ص45.

2- ياسين سعادة، التحليل السوسولوجي لتاريخ الجزائر إلى أين وصلت النقاشات لتشكيلة ما قبل الاحتلال الفرنسي، مجلة

الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 6، 2013، ص298.

المدخل :

مشتقة من الجوع، ومن الفعل [جاع، يجوع، فهو: جائع، وجوعان، والجوع، نقيض الشبع]¹، وهو اسم للمخمصة وهو نقيض الشبع²، ويقال أيضا : عام الجذب، وجمعها: مجائع، وقيل: مسغبة، وفي قول الله عز وجل (في يوم ذي مسغبة³) بمعنى مجاعة، وقد اشتهرت المجاعة بعدة أسماء كالقحط والجذب وغيرها.

-اصطلاحاً:

تتعدد التعريفات لمصطلح المجاعة سواءً في المصادر المنقوبة أو الفقهية أو المصادر التاريخية، لذلك سنقتصر على التصور من الجانب التاريخي فيمكن القول إنّ المجاعة أزمة اقتصادية تعيشها الدولة في فترة من الفترات.

كما يمكن التعبير عنها من خلال بعض مظاهرها كغلاء الأسعار وصعوبة المعيشة⁴.

1-2-الباء:

-لغة:

الباء: بالقصر والمد؛ هو مرض عام، وجمع المقصور: "وباء"، وجمع الممدود: "أوبئة"⁵. ويعرفه ابن منظور بقوله: "وقد وبئت الأرض توباً؛ فهي موبوءة، إذا كثر مرضها، وكذلك وبئت ووبئة على فعلة وفعيلة وأوبأت أيضا فهي موبئة واستوبأت الأرض وحدثها وبئة"، ويطلق على الباء عدة مصطلحات مثل: "المرض الوافد"؛ لأنه يصيب الإنسان عن طريق الهواء أو مثل المرض العام؛ لأنه يشمل وفداً كثيراً من الناس وللواء مرادفات، مثل: القرف والعدوى.

¹-اسماعيل الجوهري، (الصاح) تاج اللغة والصاح العربية، تح. أحمد عبد الغفور العطار، ج3، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ط3، مادة (جوع)، ص1201.

²- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مج 1، دار صادر، بيروت، 1997، ط1، مادة (جوع)، ص488.

³ سورة البلد، الآية13.

⁴- سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2008-2009م، ص19.

⁵ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988، مادة (وبأ)، ص706.

يقول ابن خاتمة "إنّ الوباء مرض عام للنّاس، قتال عن سبب مشترك"، وعرفه ابن الخطيب وذكر أعراضه فقال: "فهو مرض حادّ حارّ السّبب؛ سُمّيّ المادة يتصل بالروح بواسطة الهواء ويسري في العروق فيفسد الدّم وبحيل رطوبات إلى التسمية، وتتبعه الحمى، ونفث الدم، ويظهر عنه خراج من جنس الطواعين¹.

أما ابن خلدون فكان أكثر دقّةً وتمحيصاً، فهو يرى أنّ الوباء يظهر ملازماً للمجاعات التي هي من جملة العوارض التي تعترض الدولة في آخر دورتها، ويزيد أنّ من أسباب الوباء، فساد الهواء وكثرة العمران، وهذا مثبت في الدراسات الحديثة².

- اصطلاحاً:

تعدّدت المفاهيم الخاصة بمصطلح الوباء، لذلك نكتفي من توضيح مفهومها الطبي الحديث ومفهومها في المصادر الإسلامية، والتي لا تتعارض كثيراً فيما بينها.

1-2-2-الوباء في الطب:

يعرف الوباء بأنه مرض عام يشترك فيه الإنسان والحيوان، تسببه بكتيريا أو فيروسات تختلف باختلاف صنف المرض الوبائي، ومن خصائصها: سرعة الانتقال من الشخص المصاب إلى الشخص السليم، عن طريق وسائط متعددة أهمها الهواء والماء وكذلك القوارض² كالجرذان والأرانب البرية والكلاب البرية وغيرها³.

1-2-3-الوباء في المصادر الإسلامية :

هناك العديد من التعريفات، فمن خلال كتب التراث الإسلامي في الفترة الوسيطة نكتفي بالأنسب وهو تعريف ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بقوله (والحاصل أن حقيقته ورم ينشأ من هيجان الدم أو انصباب الدم إلى عضو فيفسده وأن غير ذلك من الأمراض الناشئة عن فساد الهواء يسمى طاعونا بطريق المجاز لاشتراكهما في عموم المرض وكثرة الموت ...، ومن أطلق على كل وباء طاعونا فبطريق المجاز...، والذي يفترق به الطاعون من الوباء أصل

¹- بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة اجتماعية)، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة وهران 1 احمد بن بلّة، 2014-2015، ص 51.

²- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 302.

³سمية مزدور، المرجع السابق، ص 21.

الطاعون الذي لم يتعرض له الأطباء ولا أكثر من تكلم في تعريف وهو كونه من طعن الجن¹.

وما يميز هذا التعريفات هو النظرة الفقهية²، ووحدة المصدر المعتمد عليه من الحُفاظ والعلماء كابن حجر العسقلاني في كتابه "بذل الماعون وفي فضل الطاعون" وجلال الدين السيوطي في كتاب "مارواه الواعون في أخبار الطاعون" وغيرها³.

إنّ نظرة المصادر التراثية الإسلامية، تتفق مع كتب التراث الأوروبي، وبخاصة المصادر الإغريقية التي استخدمت مصطلح لويروس "loimos" أو لويما "loimia"، كما استخدم في المصادر اللاتينية مصطلح "pesti" للدلالة على الأمراض الكبرى التي تصيب البشر⁴، وقد أصبح هذا اللفظ انطلاقا من الطاعون الأسود في منتصف القرن الخامس عشر يدل فقط على الطاعون الذي يحصد أعدادا هائلة من الضحايا⁵.

2-الفرق بين الوباء والطاعون :

وإذا كانت العديد من المصادر والمراجع المحلية لا تضع الحدود بين الوباء والطاعون سوى إشارة هامة من كتب التراث الإسلامي لابن حجر العسقلاني بقوله: "إنّ كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون"⁶، وهذا التمييز من ابن حجر بين المصطلحين هو تمييز صائب، لكنه يفتقد إلى التحليل والوصف العلمي الدقيق، لذلك فإنّ معيار التفرقة بين الوباء والطاعون يشمل ثلاثة نقاط رئيسية كالآتي:

¹ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 11، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2007، م1 ص263.

² هناك نظرة فقهية في تعريف الطاعون انطلاقا من حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال (هو وخز أعدائكم من الجن، وهو لكم شهادة) للمزيد من التفاصيل ينظر، ابن حجر العسقلاني، نفسه، ص264.

³ الحسن الفرقان، مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة، المغرب، أكتوبر، 2002، ص 310.

⁴ أول من أطلق على الطاعون هذا الاسم هو الطبيب اليوناني بقراط والذي عرّفه بأنه شكل حمى، فقال توجد حمى تدعى الطاعون، ينظر: إسماعيل رشدي، أبحاث الطاعون، ط1، مطبعة الشعب، مصر، 1904، ص5.

⁵ الحسن الفرقان، المرجع نفسه، ص 310.

⁶ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص 263.

- أولاً: مفهوم الوباء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعمّ من مرض الطاعون، فالوباء يمكن أن يشمل أمراضاً عديدة من بينها الطاعون¹.

- ثانياً: إن اعتبرنا أنّ الطاعون هو: وحدة جزئية من الأوبئة، فإنّه هو الأعلى ترتيباً، والأقوى تأثيراً.

-ثالثاً: لكي يتم تصنيف وباء على أنّه طاعون يجب أن تتوفر فيه بعض الشروط، وهي أن يتصف بالانتقال السريع من شخص لأخر، التقشي في أكثر من حيز جغرافي والقدرة على الحفاظ على النشاط الأكبر لأكثر مده زمنيه، وإذا أخذنا مثلاً على وباء لا يرقى لمستوى الطاعون نأخذ مثال الكوليرا "choléra" فإنه وباء لكن يستبعد أن يكون طاعوناً بسبب قدرته المحدودة على الانتقال بين الناس².

3-التعامل مع الأوبئة من المنظور الإسلامي:

بالنسبة للتعامل مع الأوبئة من جهة الشرع الإسلامي،نهدف إلى استعراض بعض الأحاديث التي فيها توجيهات نبوية للتعامل مع المرض في حد ذاته،بالإضافة إلى التعامل مع المريض ومصير المسلم الذي يتوفى متأثراً بالطاعون، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً ذلك: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"³.

وقد روي عن سيدنا عمر بن الخطاب بأنه عند ذهابه إلى الشام بينما هو في الطريق لقيه أصحابه وأخبروه أن الطاعون قد أنتشر بالشام، فتريث عمر واستشار أصحابه من المهاجرين والأنصار فاختلفوا، فاستقر رأيه على الرجوع، وعدم الدخول الشام، فقال له الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح "أفراراً من قدر الله"، وقال عمر: "لو غيرك قالها يا أبا عبيدة"،

¹-علا محمود حمود، المجاعات والأوبئة في المغرب والأندلس ق6-8/12-14م"دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة البعث، العراق، 2018، ص94.

²- خير الدين سعيدي، مرجع سابق، ص 33.

³- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج3، موافقة لترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا، القاهرة 2003، ط1 ص83، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث 5725

نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، إلّا أن جاء عبد الرحمان بن عوف، وروي لهم الحديث الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان موافقاً لأمر عمر بالرجوع، وعدم دخول الشام¹.

وقد روي في الحديث فيما يتعلق بالجذام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد".

وقد استفاض المحدثون في شرح هذا الحديث وبينوا آراءهم حوله، وقد روى ابن حجر العسقلانيّ أنه كان في وفد ثقيف الذي أراد مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم رجل مجذوم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "إنا قد بايعناك فارجع"، كما ذكر ابن حجر أنه قال عمر بن الخطاب قال لأحد المرضى (جلس مني قيد رصع، كما نذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا يورد مُمْرَضٌ على مُصَحٍّ"².

ويعلق ابن حجر على أن القرار، وقد استفاض ابن حجر في التعليق على هذا الحديث ومن جملة انتقال الداء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة³ ومن هذا الهدي النبوي يتبين لنا حرص الإسلام على استحباب أخذ الاحتياطات اللازمة تجنباً للعدوى وانتشار الأمراض.

وقد حاول النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين لنا في قوله: "لا عدوى"؛ أنّ كل ما يصيب الإنسان هو فقط ما يكتبه الله له⁴. ورغم ذلك فالإنسان مطالب بأخذ كل احتياطاته ونحن نشاهد

¹- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ، ط1، ج7، ص130، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: 5769.

²- أخرجه ابن حبان في صحيحه، صحيح ابن حبان بترتيب ابن اللبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم الدارمي، البستي، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ط2، ج13، ص483، كتاب العدوى والطيرة والفأل، رقم الحديث: 2115.

³- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج11، حقق أصولها وأجازها عبد العزيز عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2007، ط1، ص242.

⁴- أخرجه البخاري في صحيحه، باب لا عدوى، ج7، ص138، رقم الحديث 5776.

اليوم إجراءات التباعد الجسدي المعمول بها من طرف الدول إلا دليل على حرص الإسلام على الحفاظ على الصحة العامة للبشر، ولعلّ الآراء التي نقولها أن الأمر بالفرار من المجنوم ليس من باب العدوى في شيء، بل هو أمر طبيعي، وهو إجراء وقائي.

وقد اختلف جمع من العلماء في شأن الوقاية من الوباء، وكان منهم المعارضون بشدة لهذه الإجراءات، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر "العربي المشرفي" صاحب كتاب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"، الذي أبدى رفضه كل إجراء حمائي، وانطلق من حكمه الشخصي في المسألة بقوله: "اعلم أنّ الفرار من الطاعون منهياً عنه بنص القرآن والحديث النبوي مستنداً في ذلك إلى القراءة التي تبناها العديد من الفقهاء والعلماء لمجموعة من الآيات والآثار التي تحت على الإيمان بقضاء الله وقدره منها قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا)¹.

تفيد الآية بأن الله عاقب الفارين من الطاعون المرسل على بني إسرائيل، ومن السنة استند إلى قراءات لخبر تراجع عمر ابن الخطاب عن دخول بلاد الشام سنة 18هـ/638م، بسبب الطاعون المتفشي بها وقتئذ وبالتالي خرج المشرفي بحكم مفاده هو رفض الخروج من الطاعون ونهى القدوم إليه بقوله: "فلا شك أن الفرار من الطاعون من المعاصي والكبار عند الجمهور على أرض هو بها من التعرض للبلاء، وهذه سنة السلف التي إرث الخلف"².

4-المفاهيم الطبية الحديثة:

نحاول من خلال هذه الجزئية التطرّق إلى المفاهيم المعنية بالدراسة وفق الدراسات الحديثة:
4-1-علم الأوبئة: نحاول في هذه الجزئية التطرق إلى أهم المفاهيم الحديثة المرتبطة بعلم الأوبئة ومجالات اهتماماته.

بالنسبة للدراسات المعاصرة فقد ظهر علم الأوبئة (épidémiologie) وهو دراسة لتوزيع الأحداث المتعلقة بتفشي الأمراض المعدية من فئة محدودة إلى جميع السكان مع دراسة تأثيراتها وطرق الوقاية منها.

¹ - سورة البقرة، الآية رقم 243.

² - رشيد حفيان، الكوارث الطبيعية وآثارها في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 2020-2021، ص 288.

وبالإشارة لعلم الأوبئة فإنه يمكن تحديد مفهوم للأوبئة بشكل عام هي أمراض تصيب البشر والتدبيات عن طريق انتقال البكتيريا بعدة طرق أهمها لدغة البراغيث المصابة بالوباء أو التعامل مع الحيوانات المصابة أو التواصل مع البشر المصابين بهذا الوباء¹.

ولا بد من إشارة إلى مجالات اهتمامات علم الأوبئة والذي يقوم أساسا على دراسة الحالات الجماعية للعدوى وليس الحالات الفردية للمرض، لذلك فالأمراض الوبائية أمراض معدية تصيب الأعداد الكبيرة من البشر لذلك ليست كل الأمراض المعدية وبائية، وعموما فهو يهتم بدراسة سبب المرض المؤدي للعدوى الجماعية.

ويهتم علم الأوبئة بمسألتين أساسيتين كالآتي:

أولاً: مسألة انتشار الأمراض في الأماكن المحددة، وبين المجموعات البشرية باعتماد المعايير المختلفة كالعمر والعرق والخصائص الإثنية والجنس (الذكور والإناث).

ثانياً: مسألة العوامل المؤدية إلى انتشار الأمراض كالأسباب الناقلة مثل: الحشرات والفئران وتنتقل العدوى بعدة طرق كالآتي:

-الاتصال المباشر بين الأشخاص مثل: حالة الأمراض الجلدية كالجرب، أو الاتصال الجنسي كالزهري.

- العدوى عن طريق الهواء كحالات إصابات الجهاز التنفسي، بحيث تنتقل العدوى بفعل الرذاذ المتطاير كالسلّ والأنفلونزا.

- العدوى عن طرق الجهاز الهضمي بتناول الطعام أو الشراب الملوث مثل الكوليرا .

- العدوى عن طريق البراغيث مثل الطاعون، وكذلك الملاريا والحمى الصفراء التي تنتقل عن طريق البعوض².

- العدوى عن طريق اختراق الجلد كحالة اختراق يرقات الدودة الخطافية للجلد.

¹- خير الدين سعدي، المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700 1830، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، 2018-2019، ص 21.

²- شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ المرض والقوة الإمبريالية، تر وتق: أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 08.

- العدوى عن طريق المشيمة أثناء الحمل مثل فيروس الإيدز.

من بين جميع الأوبئة شكل الطاعون الوباء الأشد فتكا بالبشر عبر التاريخ، وأحد أخطر الأوبئة التي عانت منها الجزائر، وقد تكرر ظهوره باستمرار محدثا آثارا قاسية على البنية الاجتماعية الجزائرية، وقد ارتبط بعدد العوامل المؤثرة كالتقلبات المناخية ومواسم الجفاف المتكررة وموجات الجراد، وما نتج عنها من مجاعات مدمرة ...¹.

وبحكم تركيزنا على الطاعون لابد من توضيح مفهوم علمي له، مع الإشارة الموجزة لأنواعه كما يلي:

4-1- مفهوم الطاعون:

الطاعون مرض جرثومي معد ينتشر على شكل وباء واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية (pestes atra) والتي تعني الموت الأسود لأن لفظة (pestis) وحدها تعني "آفة"²، وهو إصابة خطيرة تسببها عصية يرسين نسبة إلى الباحث الفرنسي "ألكسندر يرسين" alexandr yersin، وتنتقل هذه الجرثومة وتتكاثر في أجسام بعض القوارض البرية التي تعد خزاناً لهذه الجرثومة كالأرانب والجرذان السوداء "rattus rattus"، وكذلك الثدييات الصغيرة وخاصة القوارض، ويمكن لأكثر من 200 جنس مختلف من الثدييات أن يحمل نفس الخطر. وأما طريقة انتقالها إلى الإنسان فتكون بقيام البراغيث بامتصاص دم خلية موبوءة وزرعه في خلية سالمة³.

وقد اكتشف "بول لويس سيمون" "paul louis simond" سنة 1898 دور براغيث القوارض في نقل العصية وقد يتسبب حوالي 80 جنساً من البراغيث في نقل هذه العصية⁴،

1- فلة القشاعي الموساوي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الإحلال الفرنسي 1518-1871، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013، ص219.

2- مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، تر: حضرية يوسف، منشورات anep (المؤسسة الوطنية للاتصال)، الجزائر، 2013، ص20.

3- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 1992، ص146.

4- مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع نفسه، ص20.

ويخضع نشاط العدوى لعامل المناخ، بحيث تتوقف البراغيث عن الإنتاج مع اشتداد درجات الحرارة كما أنها تموت وتختفي في حال انخفاض درجات الرطوبة عن 80% وهذا ما يفسر بقاء الطاعون في فصل الربيع حيث يشتد الوباء في شهر مارس وأفري لوماي، وهذا ما يفسر بقاء المناطق الصحراوية بمنأى عن الوباء¹.

بعد بيان الطاعون وطريقة انتقاله إلى البشر نبين أنواع الطاعون لكن لابد من أن نشير إلى صعوبة تحديد الأعراض من قبل المصادر والمراجع وغالب ما هو متفق عليه على أن الأكثر انتشاراً كان الطاعون الخراجي أو الدملي (peste bubonique) ثم الطاعون الرئوي (peste pulmonaire) وقد أثبتت الوثائق المختلفة المتعلقة بالوضع الصحي أن هذين النوعين من الطاعون كانا الأكثر انتشاراً بالإيالة الجزائرية.

4-2-أنواع الطاعون:

هناك عدة أنواع من الطاعون نذكر أهمها كالآتي:

-الطاعون الخراجي أو الدملي "peste bubonique":

هو النوع الأكثر انتشاراً في الجزائر كما ذكرنا ، وهو طاعون مميت يتميز بالتهاب الغدد اللمفاوية² وسمي بالطاعون الخراجي أو الدملي نظراً لظهور خراج (bubon) أي دملة حمراء، متضخمة والتهابية، تتركز تحت الإبط وفي الفخذ و الرقبة أو وراء الأذن، وتنتشر الدامل بالجسم بعد تقيحها وقد تظهر الأعراض عن طريق تعرض المصاب بصداع شديد مصحوب بغثيان ، كما يؤدي هذا المرض إلى تقيؤ الدم الأسود واسوداد الجلد بعد تعرضه للنزيف الداخلي³ ، ثم آلام تؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة أكثر من (40.5 °) مع تسارع نبضات القلب والتنفس. وبالتالي يسقط المريض في حالة من الخمول وفقدان الوعي، ثم يموت المريض بعد أربعة أيام بسبب الألم الشديد⁴ ، وعادة ما يكون هذا الوباء قاتل بنسبة 80%¹.

1- محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، ص146.

2- ديفيد كوامن، "أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر"، ج2، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، المجلس الوطني

للتقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014 ص313.

3- علا محمود حمود، المرجع السابق، ص94.

4- فلة القشاعي، المرجع السابق، ص221.

-الطاعون الرئوي (peste pulmonaire ou pneumonique):

يعتبر أخطر من الطاعون الخراجي أما أعراض في نفث أو تنخم لزج، ثم دموي أحمر، مصحوب بنوبات السعال المحملة بالجراثيم المرتكزة بالرئتين عن طريق الاحتكاك المباشر مع الإنسان أو الحيوان المصاب به وتستلزم الإصابة به احتكاكا قريبا أو مباشرا، ويعاني المصاب من الاختناق وصعوبة التنفس²، إضافة إلى أنه يتغير لونه وترتفع درجة الحرارة إلى 41° ويموت المصاب بعد ثلاثة أيام بسبب اختناق المصاب بالسعال المحملة بالجراثيم³.

-الطاعون التعفني (طاعون تلوث الدم) peste septicémique primaire:

تتمثل أعراض هذا الطاعون في الإصابة بالحمى الشديدة التي تصل إلى 42° ويتحول لون بشرة المريض إلى البنفسجي ثم يرتعش وتنتابه نوبات من العطس تعقبها الوفاة بعد يوم واحد كون الإصابة بهذا النوع يكون مصيرها الموت⁴.

4-3-العلاقة بين الوباء والمجاعة:

وإذا ما انتقلنا إلى علاقة المجاعات والأوبئة فانه في الكثير من الأحيان تكون علاقة سببيه لكنها ليست حتمية ففي كثير من الأحيان تحدث مجاعات دون أن تعقبها أمراض وأوبئة مع حدوث العكس⁵.

وقت تقرر عند المختصين في الطب إن المجاعة تؤثر بشكل مباشر وأحيانا بشكل غير مباشر في انتشار المرض والوباء، فنقص الغذاء لجسم الإنسان يؤدي إلى نقص البروتينات والسكريات والدهون والفيتامينات والتي تدخل في تركيب خلايا الجسم وحاجياته والتي تعمل على تنشيط نخاع العظمي الذي ينتج الخلايا البيضاء ونشاط الخلايا البيضاء يمكن الجسم من

1- مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص22.

2- علا محمود حمود، المرجع السابق، ص95.

3- فلة القشاعي، المرجع السابق، ص223.

4نفسه.

5- خالد بالعربي، المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزباني 1299_1442م، دورية كان التاريخية، ع4، جوان 2009، ص

مواجهه العصيات المعدية المنتجة للأمراض الجرثومية وفقدان أو نقص هذه الخلايا يجعل الجسم غير قادر على مواجهه الفيروسات التي تحملها الأوبئة وبالتالي الإصابة بالوباء¹. وكما أن المجاعة تؤدي إلى الوباء، فإن الأوبئة ممكن أن تؤدي إلى المجاعات وذلك عن طريق كثرة الوفيات التي يسببها الوباء، ويكون هذا سببا في تقليص اليد العاملة وتعطيل النشاطات الزراعية والتي بدورها تؤدي إلى قلة الإنتاج²، ومن هنا فإن كلا من الأوبئة والمجاعات في غالب الأحيان يتميزان بالتزامن والتعاقب ويسهل كل منهما مأمورية الآخر.

¹- خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 3233.

²- محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، ص 146.

الفصل الأول:

بايلك الغرب الجزائري "قراءة في المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية"

1- الإطار الجغرافي لبايلك الغرب الجزائري

2- التقسيم الإداري للبايلك

3 - التركيبة الاجتماعية

4-المستوى المعيشي للسكان

5-الوضع الاقتصادي

6- الوضع الثقافي

تتطلب دراسة الموضوع التعرض للعديد من المحطات وهو ما سنسعى من خلاله في هذا الفصل من خلال استعراض المعطيات العامة للإطار المكاني للدراسة وهو بايلك الغرب الجزائري¹، فلا يمكن التعرض إلى الأوضاع الصحية والمعيشية لأي منطقة دون التعرض لواقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لذلك لا بد من معرفة هذه الجوانب لأنها من دون شك ستوضح لنا معالم تعامل رجال السلطة وأطراف المجتمع مع مختلف الأزمات.

يتميز بايلك الغرب الجزائري بخصوصيات عديدة كالموقع الإستراتيجي المميز بحكم الانفتاح الطبيعي على كثير من الكيانات السياسية والاجتماعية، هذا الموقع أدى إلى وجود علاقات تتسم بالصراع السياسي والانفتاح الاقتصادي والتنوع الاجتماعي والثقافي، وقد كان الموقع الجيوإستراتيجي سببا في تعرضه للأطماع الأجنبية.

كما ميّز هذا البايك الصراعات الداخلية المستمرة، وقد أزهقت الأوضاع الصحية المتدهورة وكذا المجاعات المهلكة وما صاحبها من كوارث طبيعية والتي سنتطرق إليها لاحقا.

1- الإطار الجغرافي لبايك الغرب الجزائري :

يتمتع الغرب الجزائري بموقع جغرافي وفلكي مميز من خلال تنوع تضاريسه من البحر الأبيض المتوسط وإلى غاية الجنوب من خلال مجموعة من السهول والجبال والهضاب، كما تتواجد به الأراضي القاحلة نظرا لوجود السباح المالحة مثل سبخة وهران والتي كانت مصدرارئيسيا لتمويل الإيالة الجزائرية بالملح، بالإضافة إلى وجود مجموعة من الأودية والمجاري المائية، وقد تميّز البايك بتنوع مناخه بين الشمال والجنوب².

¹تمّ استخدام مصطلح البايك للدلالة على إيقاع يخص ضباط الإنكشارية المتقاعدين، وبعد ذلك توسع في الجزائر هذا المصطلح ليشمل الإقطاعات التي تؤخذ منها الضرائب، ثم شمل الجانب الإداري ليدل على المقاطعات الإدارية الكبرى. ينظر: ناصر الدين سعيدي، ورفات جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ط2، ص188.

² دباب يومدين، بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18-دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2016-2017، ص4.

ومن الناحية الطبيعية تنقسم الجهة الغربية إلى ثلاث مناطق رئيسية هي كالآتي:

المنطقة الشمالية :

بحكم موقع البايك جنوب المتوسط تنحصر هذه المنطقة بين البحر والجبال كجبال أرزيو وهران ،تلمسان أما جنوبا فنجد جبال سعيدة إلى جبال فرندة والونشريس شرقا ¹.
وتتميز هذه المنطقة بتساقط كميات معتبرة من الأمطار بحكم مناخها المتوسطي.

الهضاب العليا :

هي سهول عالية تمتد بين السلسلة التلية شمالا والأطلس الصحراوي جنوبا على مسافة 180 كلم ، أهم ما يميز المنطقة سقوط كميات متوسطة من الأمطار ونمو أعشاب قليلة ، ورغم ذلك فإن سكان هذه المناطق يمارسون زراعة الحبوب والنشاط الرعوي.

المنطقة الجنوبية :

هي عبارة عن مساحات واسعة قاحلة،تمتد هذه المنطقة من جبال الأطلس الصحراوي المكونة من جبال القصور والعمور والتي تتخللها بعض المنخفضات والمعابر التي تسهل التنقل، وقد كان لهذه التضاريس المتنوعة الدور الأساسي في تحديد مناخ كل إقليم.
إن تنوع المناخ كان من العوامل الهامة في تعرض الإيالة الجزائرية إلى أزمات وكوارث طبيعية كالفيضانات والجفاف مما أدى إلى انتشار القحط والمجاعات والأوبئة هلاك الكثير من السكان ².

¹-كمال بن صحراوي،أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث،جامعة وهران،2012_2013،ص22.

² - ارزقي شويثام ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني1830_1519،أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر،جامعة الجزائر، 2005_2006، ص 22 .

2-التقسيم الإداري للبايلك

يعود تاريخ تأسيس بايلك الغرب الجزائري إلى سنة 1563م، وقد كانت حدوده الجغرافية تمتد على النحو التالي:بايلكالتيطري ودار السلطان شرقا، المغرب غربا، البحر المتوسط شمالا والصحراء جنوبا¹، ومن الناحية الإدارية فقد كانت أول عاصمة للبايلك هي مدينة مازونة التي تم اختيارها لموقعها الاستراتيجي.² في حين كانت مدينة تلمسان عاصمة أخرى وقاعدة هامة في البايك، ولم يتم توحيد مقر وقاعدة الحكم إلا في سنة 1686 فأصبحت قاعدة البايك هي قلعة بني راشد³.

ومن حيث التقسيم الإداري يوجد في هذه المنطقة يوجد ستة أقسام يحكم كل واحد منها قائد من القادة⁴، كما أن لهذه المنطقة خصوصية سياسية وعسكرية وإدارية فرضها الاحتلال الإسباني لوهراة والمرسى الكبير منذ سنة 1509، وقد كانت المساحة التي تحتلها إسبانيا حول هذه المنطقة حوالي 98 كلم وهي مساحة معتبرة⁵.

ومع ظهور المتغيرات التي فرضها الواقع الأمني والسياسي تم تغيير عاصمة البايك بعد بني راشد، فقد أصبحت مازونة ثم معسكر ثم وهران خلال الفتح الأول سنة 1708، ثم مستغانم، ثم أصبحت معسكر، وأخيرا وهران خلال التحرير النهائي لها سنة 1792⁶.

1 - هناك من يفصل بدقة الحدود الجغرافية للبايلك بحيث يحده وادي الشلف من الشرق وادي ملوية في الغرب. ينظر: فتية الواليش، المرجع السابق، ص 16.

2 - بومدين دباب ، بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، أطروحة دكتوراه ، قسم العلوم الإنسانية ، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2016، 2017، ص 42.

3 - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ج 1، تح ودر: يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص 271.

4- المزاري يشير إلى التقسيم الإداري لهذه المقاطعات ومن يتولى حكمها والتقسيم الجغرافي لها. للمزيد من التفاصيل ينظر: بن عودة المزاري، المصدر نفسه، ص 274-275.

5 - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص 447.

6- بسبب الاحتلال الإسباني لوهراة والمرسى الكبير تم تغيير عاصمة البايك تماشيا مع هذا الوضع. ينظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 271.

ومن حيث الجهاز الإداري في البايك فقد كانت السلطة التنفيذية المطلقة بيد الباي الذي كان يساعده في أداء مهامه ديوان خاص مكوّن من مجموعة من الموظفين السامين الذين يشكّلون الديوان الكبير للبايلك¹.

وقد كانت المهام مقسّمة في البايك بين ثلاثة حُكّام يشرفون على جمع الضرائب وتعيين القيّاد وهم: آغا الدواوير، وآغا الزمالة، وخليفة الشرق، وقد كانت قبائل الدواوير والزمالة أكبر القبائل في المنطقة والمشكّلة للمخزن²، كما ساهمت هذه القبائل في توطيد وتدعيم الحكم العثماني بالجزائر³.

لقد تمتع الباي المعين على رأس البايك بصلاحيات مطلقة من حيث تسيير شؤون الإقليم والإشراف على الجيش ومراقبة عملية استخلاص الضرائب من الأرياف، كما كان له الحق في إصدار العقوبات على المخالفين وغيرها من الصلاحيات⁴.

ومن الملاحظ في المنظومة الإدارية خلال العهد العثماني استمرار هذا التقسيم طيلة هذه الفترة، كما استمر هذا التقسيم إلى فترة الاحتلال الفرنسي فقد حافظ الفرنسيون على نفس التقسيم مع تغيير مصطلح البايك إلى "عمالة"⁵.

وبالنسبة لتسيير شؤون البايك فقد كان للباي مجموعة من المساعدين لكل واحد منهم وظيفة محددة يقوم بها وأهم هؤلاء الموظفين نذكر:

-الخليفة:

يقوم الخليفة بإدارة شؤون الأرياف كما يقوم بقيادة القوات النظامية كما يقوم باستخلاص الضرائب، يقترحه الباي ويعينه الداوي وهو بمثابة نائب الباي يقوم بكثير من المهام نيابة عن الباي في الحالات التي تستدعي ذلك.

¹قُدور بوجلال، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات 1671-1830م، رسالة

مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1، 2016-2017م، ص28

²يتكوّن مخزن وهران من خمسة أعرّاش وهي: الدوائر والزمالة والغرابية والبرجية والمكاحلية. للمزيد من المعلومات ينظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص332.

³قُدور بوجلال، المرجع نفسه، ص30.

⁴فتيحة الواليش، المرجع السابق، ص17.

⁵قُدور بوجلال، المرجع نفسه، ص24.

-الخزندار:

وهو القائم على الشؤون المالية يقوم بالإشراف على مداخيل بايلك الغرب ، ويقوم على الإشراف على جمع وتسليم الضرائب¹.

-آغا الدائرة:

كان منصب الآغا يمنح للعرب² وقد تعددت مهامه فهو بمثابة الوسيط بين السكان والباي يتلقى الشكاوى ويعرضها على الباي كما يقوم الباي بمشاورته وله سلطة مميزة تتيح له التصرف في الأرياف.

-الباش كاتب:

هو الكاتب العام الذي يحرر الرسائل الهامة التي يرسلها الباي ،كما يشرف ويراقب بقية الكتاب وله علاقة بالخزناجي نظرا لإشرافه على الأمور المالية للباي³.

-الباش مكاحلي:

وهو قائد حرس الباي الشخصي، يقود فرسان النخبة المعروفين بالمكاحلية الحرس الشخصي للباي.

-الباش سراج:

وهو المشرف على إسطبلات البايلك وهو من يشرف على تجهيز حصان الباي في سفرياته،كما يشرف على عمال الإسطبلات.

-الباش علام:

وهو المشرف على حمل أعلام الحامية العثمانية في بايلك الغرب⁴.

وهناك العديد من الموظفين أقل أهمية لا يحضرون ديوان بايلك الغرب، أما بالنسبة للمدن فكان يدير شؤونها مجموعة من الموظفين من أهمهم :

¹ فتيحة الواليش، المرجع السابق،ص19.

² نفسه،ص18.

³ قدور بوجلal، المرجع السابق،ص32.

⁴ نفسه،ص33.

-قائد السوق:

وكانت مهمته مراقبة السوق من خلال مايباع ،كما يراقب الدكاكين ومختلف السلع والبضائع المعروضة ،فهو يراقب كل ما يحدث في الأسواق من تحايل، كما يقوم بمراقبة الأسعار والموازين.

كما كان هناك مجموعة من الموظفين السامين كقائد الدار وهو من كان يتولى رئاسة أمناء المهن، وقائد القصبة الذي يشرف على أمن المدينة ليلا ونهارا وكذا مراقبة السجون، إضافة إلى مجموعة من الموظفين كناظر الأوقاف وقائد الزبل المشرف على نظافة المدن وغيرهم من الموظفين الذين يقومون بتسيير شؤون المدن¹.

3 - التركيبة الاجتماعية:

يتميز المجتمع الجزائري بتنوع عرقي كبير بحكم توافد مختلف الأجناس و الأعراق على الجزائر عبر مختلف العصور وخاصة خلال العهد العثماني، ويمكننا الإشارة إلى التقسيم المعتاد لمختلف المصادر و المراجع أن المجتمع خلال هذا العهد انقسم إلى قسمين سكان المدن الذين كانت تتراوح نسبتهم بين 5 و 10% وسكان الأرياف الذين يمثلون الأغلبية الساحقة للمجتمع الجزائري².

3-1- مميزات الوضع الاجتماعي في الجزائر العثمانية:

تميز الوضع الاجتماعي بالجزائر خلال هذه المرحلة بقلّة الحواضر وانتشار الحياة الريفية مع وجود نوع من الانعزال بين الحياة الريفية و الحياة المدنية ما أدى إلى قلة التفاعل الاجتماعي بينهما.

وقد تأثر المجتمع الجزائري بعوامل داخلية أهمها وجود المؤسسات الثقافية المتمثلة في الزوايا والمساجد والأوقاف، إضافة إلى انتشار التصوف وتنوع البنية الاجتماعية للمجتمع

¹ قنور بوجلal، المرجع السابق، ص35.

² - أرزقي شويّتام، المرجع السابق، ص 54.

الجزائري ما أدى إلى التطور الديموغرافي و الحركية التجارية والعمرانية خاصة بالحوضر الكبرى.

أما العوامل الخارجية فتمثلت أساسا في التواجد العثماني ما أدى إلى تفاعل العثمانيين مع المجتمع الجزائري و التأثير الكبير للهجرات الأندلسية المتوالية على الجانب الثقافي والعمراني، إضافة إلى الغزو الصليبي مما أدى إلى هجرة السكان الأصليين للحوضر الساحلية إلى المناطق الداخلية الأكثر أمنا¹.

لقد تميزت البنية الاجتماعية بتباين من حيث عدد السكان سواء في المدن أو الأرياف فكما هو معروف إن نسبة المدن كانت في حدود 08%، بينما وصلت نسبة سكان الأرياف إلى 92% ولم يكن هذا التوزيع متساويا بين مختلف الجهات، فالجهة الغربية كانت فيها نسبة سكان المدن تصل إلى 8% بينما كانت في المناطق الوسطى 6%، ولم تتعدى نسبة سكان المدن في الجهة الشرقية حوالي 23%.

وقد تعددت مميزات المجتمع الجزائري سواء في المدن أو الأرياف وقد انقسم سكان المدن إلى مجموعات طائفية تباينت من ناحية الامتيازات والمكانة الاجتماعية، فكان في أعلى الترتيب الهرمي للمجتمع الأقلية العثمانية الكثيرة الامتيازات وبعدها تأتي طائفة الكراغلة التي حظيت بامتيازات ومناصب متوسطة.

ثم تأتي طائفة الحضروالمتشكلة الأشراف والأندلسيين والأعيان الذين اشتغلوا في المناصب الدينية و التعليمية، ويقارب هذه الطائفة الجالية اليهودية والنصرانية، وفي قاعدة الهرم هناك طائفة البرانية الأقل امتيازاً والأكثر عملاً في المهن المتواضعة والشاقة ومع ذلك فهي محرومة من حقوقها³.

1- ليلي محمد يسعد وبركة بلاغماس، التاريخ الاجتماعي للجزائر، منشورات ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر، 2019، ط1، ص109.

2- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988، د ط، ص111.

3 - نفسه

نشير إلى أهم المدن التي استقر بها السكان و التي توفرت فيها المقومات الأساسية للعيش هي: تلمسان، مازونة، ندرومة وقد كانت لهذه المدن أدوار مختلفة ثقافيه اقتصاديه وإداريه وقد كان لهذه المدن ماضي تاريخي عريق كما شكلت مدن البايك عبر العصور نقطه عبور نحو اتجاهات مختلفة بحكم موقعها المميز¹.

3-2-تركيبية سكان المدن والأرياف:

يتشكل سكان المدن من طوائف متعددة كما أشرنا ويمكن أن نعرف بهم بشكل مختصر حسب مكانتهم الاجتماعية كالآتي:

3-2-1سكان المدن :

نشير إلى سكان المدن والذين يتشكلون من الفئات التالية :

-العثمانيون (الأتراك)²:

وهم أعلى فئة في السلم الاجتماعي يشكلون الطائفة الاجتماعية الأولى في مدن البايك،ويتكونون أساسا من جنود الإنكشارية،ورغم عددهم الضئيل طيلة سنوات تواجدهم بالجزائر إلا أنهم سيطروا على الوظائف العليا وكانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة، فقد شغل العثمانيون الوظائف العليا سواء الإدارية أو العسكرية، وقد غلب عليهم الطابع العسكريما جعلهم أكثر خشونة في تعاملهم مع السكان وهو ما صعب عليهم عملية الاندماج في المجتمع الجزائري.

-الكراغلة³

¹ فتيحة الواليش، المرجع السابق، ص ص 44-45.

² - من الأخطاء الشائعة أن نطرق على رجال السلطة مصطلح الأتراك والصحيح هو اسم العثمانيين كون هذا الاسم يجمع في دلالته أعراقا من أصول مختلفة كالأتراك والعرب والصقليين واللاتينيين والإغريق وغيرهم ... ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998، ط1، ص 139.

³ - جمع كرغلي وهو مصطلح تركي مركب من شقين كورو وتعني عبد، وأوغلي تعني ابن، وتعني الكلمة عموما ابن عبد. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 145

هم المولودين من آباء عثمانيين من الجيش الإنكشاري مع أمهات جزائريات وقد انتشرت طائفة الكراغلة بالمدن التي تتواجد بها الحاميات العسكرية ،وقد ساعد في بروز دور هذه الطائفة الإداري والسياسي عدّة عوامل نذكر منها تكاثر عددهم بالموازاة مع نقص عدد العثمانيين وحاجة الإدارة إلى الموظفين¹.

وقد أشارت التقارير الفرنسية إلى أن الكراغلة في بايلك الغرب كانوا يقطنون بالمدن الآتية: وجود 500 جندي في مدينة تلمسان و504 في مستغانم و500 في مازونة و80 عائلة في قلعة بني راشد، وقد شهدت الفترة الأولى من الوجود العثماني نوعا من الاندماج بين الكراغلة والجيش الإنكشاري وقد حضت هذه الطائفة بالكثير من الحقوق والامتيازات وخير دليل على ذلك هو حسن بن خير الدين الذي تولى حكم الإيالة في عديد المناسبات.

وبعد تكاثر عددهم أصبح لديهم طموح لتقلد المناصب العليا ما خلق جوا من الصراع المستمر مع العثمانيين الذين كانوا يعتبرونهم في مرتبة أدنى منهم وبالتالي فمن غير الممكن حسبهم تولي الحكم والمسؤولية.

وهذا ما دفع بالكراغلة إلى الثورة وإعلان التمرد على الحكام العثمانيين لكن لم تنجح هذه التمردات ما زاد في توتر العلاقة بين الطرفين².

ومن بين الأمثلة عن تمرد فئة الكراغلة في بايلك الغرب نذكر المحاولة التي قام بها كراغلة تلمسان ضد الحامية العثمانية بالمدينة سنة 1748م والتي كانت أول محاولة للتمرد ضد الحامية العثمانية بالمدينة ولكنها باءت بالفشل.

على إثر هذا التمرد قرّر العثمانيون منع الكراغلة من الوصول إلى منصب الباي والذي كان مؤقتا فقد تمّ إعادة تعيينهم في هذا المنصب ابتداء من 1780م³.

1 - ناصر الدين سعيدوني ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر- تونس- طرابلس الغرب) من القرن العشر إلى الرابع عشر هجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ،جامعة الكويت، 1431/2010م، ص ص 55-56.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ،المرجع السابق، ص145.

3 حميد آيت حبوش، الكراغلة ودورهم السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، ع 5، ص13

-الحضر¹ :

تتكون هذه الفئة من العلماء والتجار والحرفيين والإداريين ،والمكون الرئيسي لهذه الفئة هم العائلات الأصلية في المدن ،إضافة إلى مهاجري الأندلس، وقد تميّزت هذه الفئة بامتلاك ثروات وأموال طائلة لكنها في نفس الوقت لم تكن تسعى للوصول إلى المناصب العليا وقد كان يتولى أفرادها الوظائف الإدارية المتوسطة الأهمية كالكتابة إضافة إلى مناصب الإفتاء و القضاء والفقهاء والأدوار التعليمية ، إضافة إلى الصناعة والتجارة وبذلك شكلت هذه الفئة طبقة اجتماعية ميسورة الأحوال².

-البرانية:

تشكّلت هذه الطائفة بحكم قدوم الكثير من الأشخاص إلى حواضر بايلك الغرب من مختلف أنحاء الجزائر للعمل والإقامة بهذه المدن وقد انقسموا إلى جماعات لكل جماعة مهن معينة وخدمات يقوم عليها أمين أو ما يطلق عليه ب"المقدم" والذي كان بمثابة الوسيط بين الجماعة والإدارة.

ومن بين هذه الطوائف نذكر :جماعة بني مزاب المشهورة بإدارة المطاحن والمخابز والحمامات العمومية وغيرها من الأعمال، كما شهدت حواضر الجهة الغربية تواجد جماعة البسكرة الذين وفدو إلى هذه الحواضر خلال القرن 18 اثر معاناتهم من الصراعات القائمة بين بعض الأسر كأسرة بوعكاز وأسرة بن قانة التي أيدها العثمانيون.

وقد امتهنت الجماعة البسكريّة بعض المهن الوضيعة كحمل المياه إلى المنازل والنظافة والحراسة، إضافة إلى الأغواطين وجماعة العبيد السود وغيرهم³.

1 - يمكن اعتبار طائفة الحضر والمكونة من فئة العلماء والإداريين وغيرهم من الأسر التي مثلت السكان الأصليين للمدن في نفس المكانة الاجتماعية مع طائفة الأندلسيين لذلك قمنا بضم الأندلسيين كفئة تابعة للحضر.

2 - مختار بونقاب، الحياة الثقافية في بايلك الغرب خلال القرنين 18م-19م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2015-2016، ص 45.

3 - بومدين دباب، المرجع السابق، ص137.

-اليهود:

لقد سمح العثمانيون للطائفة اليهودية بالعيش في الجزائر وممارسة نشاطاتهم التجارية مقابل الجزية المفروضة شرعا مع العديد من الضرائب الأخرى، وقد تكوّنت لدى هذه الطائفة أموالا طائلة بفعل المعاملات الربويّة والسمسرة .

وقد تباينت الآراء حول أعدادهم في بايلك الغرب وبالرغم من أنهم كانوا منبوذين من طرف المجتمع الجزائري بسبب تصرّفاتهم إلا أنهم استطاعوا الاندماج في المجتمع الجزائري واكتسبوا الكثير من عاداته وأصبحوا يسيطرون على دواليب التجارة الخارجية، وساعدهم في ذلك التسهيلات والامتيازات التي منحها لهم رجال السلطة العثمانية.

في بايلك الغرب نذكر مثالا على التسهيلات الممنوحة لليهود وهو ما قام به الباي محمد الكبير باستقطاب يهود معسكر وتلمسان وندرومة ومستغانم وتشجيعهم على السكن في وهران ومنحهم العديد من الأراضي للاستقرار بها¹.

-المسيحيون:

يقصد بهذه الفئة العناصر الأجنبية عن المجتمع الجزائري كالتجار والقناصل الأوروبيين ورجال البعثات الدينية التبشيرية، وقد كان الأسرى المسيحيون هم الغالبية الساحقة من هذه الطائفة، والجدير بالذكر أن هذه الطائفة لم تكن بمستوى التأثير والأهمية للطوائف التي ذكرناها².

3-2-2-سكان الأرياف:

أما بالنسبة للريف فقد كانت القبيلة هي الوحدة الأساسية للسكان فهي تكوّن وحده سياسية واجتماعيه واقتصاديّه، كما كان لها نوع من الاستقلال الإداري النسبي. وقد خضع تقسيم هذه

¹ - Isaac Bloch. Les israélites d'Oran de 1792 A1815 .D'après des documents inédits.au Jourdan éditeur .place du gouvernement.1886.p88.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص150.

القبائل حسب علاقتها بالسلطة السياسية الحاكمة سواء الموالين للسلطة والخاضعين لها أو الممتنعين عنها.

وقد انقسمت القبائل على النحو الآتي:

القبائل المخزنية¹:

تعتبر قبائل المخزن مصدر القوة لدى السلطة العثمانية والوسيلة الفعالة في يد الحكام العثمانيين بحكم أدوارها في تسهيل وبسط النفوذ العثماني في مختلف مناطق البايك. وقد كانت تقطن بضواحي المدن والحاميات العسكرية لتسهيل مرور الجنود كما كانت تحرص الحصون والأبراج والممرات والمسالك الجبلية كما كانت تساعد في جمع الضرائب في مقابل هذه الأدوار التي كانت تؤديها هذه القبائل حصلت على بعض الامتيازات، ومن بين الامتيازات التي حصلت عليها ملكية الأراضي بعد أن منحهم السلطة حق استغلال الأراضي الفلاحية الخصبة وهذا ما أكسب هذه القبائل صفة الإقطاعية²، إضافة إلى الإعفاء من الضرائب غير شرعية³.

لقد كان توزيع القبائل ببايلك الغرب يشكل خطين متوازيين الأول من سبخة وهران إلى منتصف واد الشلف أما الثاني فكان في أطراف الصحراء من سعيدة إلى سبدو وقد كان هذا يسمح بالسيطرة على قبائل الرعية، وقد أورد المزارعي أن مخزن وهران ينقسم إلى قسمين المخزن الشرقي ويتألف من المكاحلية وأولاد سيدي العربي وصبيح وأولاد العباس من واد

1 - يمكن تعريفها بأنها تجمعات سكانية تعميرية متميزة في أصولها ومختلفة في أعراقها، وبالنسبة لوضعية هذه القبائل فمنها من تم إقراره على الأرض التي وجد بها ومنها من منحت لهم الأرض للاستقرار عليها ومنهم من تم استقدامهم من مختلف الجهات ليكون جماعة شبه عسكرية تربطها مصالح متبادلة مع السلطة العثمانية. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، 2، ص 499.

2 - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص ص 499-508.

3 - بومدين دباب، المرجع السابق، ص 56.

مدينة إلى واد الشلف أما المخزن الغربي فقد تالف من نجع الدواوير والزمالة والغرابه والبرجية¹.

كما ذكر استرهazy "esterhazy" تعداد القبائل المخزنية الذي بلغ 17 قبيلة وهي كالاتي:
الزمالة، والدواوير، والغرابية، والبرجية، وشريريح، وبني شقران، وسجراة، وبني غدو والمكاحلية، وأولاد أحمد ، وأولاد بوغرارة ، وأولاد سلامة، وأولاد العباس وعكرمة، وأولاد خويدم ، والحشم، وعبيد الشراقة².

وقد احتلت هذه القبائل مكانه اجتماعيه مميزه بحكم موقعها كحليف للسلطة وخلال المطلع القرن الثامن عشر تزايد عددها لتصبح أكثر من 20 قبيلة على رأسها قبائل الزمالة والدواوير.
_ قبائل الرعية:

توزعت هذه القبائل عبر مختلف مناطق البايك وقد كانت هذه القبائل تعاني من عبئ الضرائب الكثيرة خصوصا مع نقص الموارد والمداخل البحرية للجزائر وبهذا كانت هذه القبائل الخاضعة مصدرا هاما لاقتصاد البلاد، وبما أن أغلب الأراضي كانت بحوزة القبائل المخزنية والأسر المرموقة كانت الكثير من القبائل تدخل في نظام الرعية للاستفادة من الأراضي مقابل تقديم خدمات للبايك إضافة إلى دفع الضرائب المفروضة عليها³.
والجدير بالذكر أن هذه القبائل فقدت الكثير من أراضيها الفلاحية الخصبة ولجأت إلى المناطق الجبلية والسهول الأقل إنتاجا هروبا من الضغط المفروض عليهم من سلطات البايك، وقد أرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأثمان زهيدة⁴، كما أن الأراضي الخصبة قد سيطر عليها القبائل المخزنية كما ذكرنا سابقا.

¹ - للمزيد من التفاصيل ينظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق ، ص32.

² - Walsin esterhazy,,De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, éditeur, C. Gosselin, Paris,1840.p266.

³ - L .Rinn .le royaume d'Alger sous le dernier dey, présentation de a ébahi, Ed, grand Alger livre, 2005, p 14.

⁴ - كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 259.

وللسيطرة على الرعية في بايلك الغرب قسمت هذه القبائل إلى مجموعات عديدة منها مجموعة خاضعة بصفة مباشرة للباي، وهي متكونة من عشيرتي بني عامر ومجاهر ، أما بقية العشائر فيتنقسم الإشراف عليها الباي وقائد فليقة وقائد المدينة وقائد الجبل إضافة إلى قائدي اليعقوبية الشرقية والغربية¹.

وقد منع رجال السلطة هذه القبائل من التواصل مع القبائل المعادية للبايلك، كما منعت من شراء الأسلحة واقتناء البارود².

ومن بين أهم قبائل الرعية نذكر ما يلي:

أولاد قصير، وأولاد سيدي العيد، والأحرار (الشرافة والغرابية) ،قبائل المحال، فليقة والحشم هازج ، وهاشم والتي ينحدر منها الأمير عبد القادر، بنو راشد، وأولاد سيدي محمد بن يحي رعية بلاد جندل، وأولاد دحو بن زرفة³.

القبائل المتحالفة:

يتميز هذا الصنف من القبائل باختلافه عن القبائل الأخرى بالنفوذ الروحي لرجال الطرق الصوفية لذلك عمل العثمانيون على كسب ود شيوخ هذه الطرق والتحالف مع السلطات والزعامات المحلية⁴. وقد كان لهذه القبائل دورا أمنيا هاما يتمثل في بسط الأمن والاستقرار باستخدام السلطة الروحية ،وقد أصبح هؤلاء الشيوخ الواسطة بين البايلك والقبائل التي يصعب إخضاعها⁵.

1 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي الوعبدلي، المرجع السابق، ص 108.

2- قدور بوجلal، المرجع السابق، ص 82.

3 - كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص ص 260 - 273 .

4 - كاميليا دغموش، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509_1792)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2013_2014، ص 112 114.

5 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108.

وقد أدت هذه الجماعات المتحالفة دورها مقابل الكثير من الامتيازات ومنها إسقاط الضرائب والمطالب المخزنية ،إضافة إلى حق اللجوء إلى زوايا هؤلاء الشيوخ ،كما لم يكن لرجال السلطة التدخل في عملية اختيار شيوخها.

ومن القبائل المتحالفة مع السلطة العثمانية قبيلة أولاد سيد الشيخ والذين ينتسبون إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي كانت حليفه للعثمانيين وحصلت على عديد الامتيازات مقابل حفظ الأمن وجمع الضرائب من القبائل التابعة لها¹.

_ القبائل المستقلة (الممتنعة):

بحكم موقع بعض القبائل البعيد عن مركز إدارة البايك و العيش في المناطق الواقعة في جبال أو التضاريس الوعرة ، كما كانت تقطن بالقرب من الحدود المغربية،وقد انتهجت هذه القبائل سياسة التمرد عن السلطة العثمانية وعدم اعترافها بسلطتهم ، والامتناع عن دفع الضرائب لها.

وقت زاد عدد القبائل المستقلة عن السلطة خصوصا مع نهاية القرن الثامن عشر بعد تدهور الأوضاع الاقتصادية للقبائل إضافة إلى ضعف السلطة مع تناقص الموارد البحرية². وقد عانت الإدارة العثمانية منذ التواجد في ذلك الغرض بايلك الغرب من عداء بعض القبائل لها مثل القاطنين قرب الحدود الغربية والذين كانوا ضد العثمانيين ومن بين القبائل المستقلة عن العثمانيين بالجهة الغربية نذكر قبائل ريغة بضواحي مليانة و بني فراح وشنوا وجندل ومطمطة والعطاف وقد حاول العثمانيون إخضاعها بمختلف الوسائل بمنع التعامل التجاري معها خارج الأسواق الرسمية .

¹Louis Rinn,op.cit ,p07.

² - أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 190.

وكل هذا لدفع هذه القبائل للخضوع لقرارات السلطة والتعامل في الأسواق بإشراف من القادة العثمانيون ومساعدة قبائل المخزن وقد كان التحكم في الأسواق يسمح باستخلاص الضرائب المستحقة على البضائع التي تدخل الأسواق¹.

وقد كانت الأسواق موطنًا لنشر الأخبار والدعايات ومع كل مرة يشعر العثمانيون بخطر سوق من الأسواق في قضية الدعاية ضدهم يقومون بنقله إلى مكان آخر يستطيعون السيطرة عليه. وعموما فإن الأسواق كانت الطريقة الأمثل لبسط نفوذ السلطة على القبائل الممتعة²، وهنا تظهر أهمية العامل الاقتصادي في السيطرة على المجتمع .

وقد ميز بايلك الغرب التمرّد المتواصل لعديد القبائل وتعدّ فتره باين محمد الكبير من أبرز الفترات التي فرضت فيها الإدارة العثمانية سيطرتها على القبائل وإخضاعها للسلطة العثمانية بالقوة كقبائل فليته والأحرار وسويد و عمور وحميان وغيرها³.

ـ القبائل المتعاونة مع الإسبان:

تعود جذور الاتصال بين هذه القبائل وبين الإسبان إلى الوهلة الأولى التي احتلّ فيها الإسبان وهران والمرسى الكبير وأسسوا سوقا تجاريا يتبادلون فيه الذهب والفضة مع ما يحتاجونه من مواد غذائية لحاميتهم، غير أن المسلمين اعتبروا المتعاملين معهم خونة وعاملوهم بعداء كما لقّبوا بالمغاطيس⁴، وسماهم الإسبان عرب السلام (moros de paz)¹.

1 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي ، المرجع سابق، ص110.

2 - نفسه.

3 - كاميليا دغموش، المرجع السابق، ص 119.

4 - المغاطيس هم المتعاونون مع الاسبان خلال احتلالهم لوهران من بعض القبائل العربية التي لعبت دورا كبيرا في إطالة زمن الوجود الاسباني وقد وصفهم عبد القادر المشرفي بقوله "...وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة المتجولين بالدواوير البائعين للعطرية ومعهم من الجلود الفلالية ،فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى ،وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود في فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا لوهران ،فبييعونه للإسبانيين وينتفعون بثمنه وهذا دأبهم ،ومسكنهم حال انحصارهم بالمسلمين بالأودية التي بساحة وهران ..."وأما عن معاملاتهم التجارية ونقلهم للمنتوجات الفلاحية يضيف المشرفي قائلا "...وكان لهم زوارق يسافرون فيها من مدا شرهم لوهران إذا اشتد عليهم الأمر وسدت عليهم الطرق البرية ،يحملون فيها للإسبانيين سائر الخضر ونحوها ،وكان الإسبان لا ينقطعون عنهم في البحر

لقد قدم عبد القادر المشرفي تقييدا ندد فيه بهذه القبائل وذمها و التي ذكر من بينها: كرشتل شافع، حميان، أولاد عبد الله، أولاد علي، غمرة، قيزة، والذين ينتمون إلى قبيلتين كبيرتين هما بني راشد الزناتية وبني عامر العربية.²

وقد ذكر توفيق المدني أن السلطات الإسبانية قد قسمت القبائل الخاضعة لسيطرتها والمالية لها إلى 3 أقسام وهم كالآتي:

-أولا: قسم الدواوير النبيلة ويطلق على رجال هذا القسم من الدواوير "فرسان المملكة".

-ثانيا: قسم الدواوير المنحطة والمستضعفة .

-ثالثا: قسم الدواوير المختلطة :وتجمع بين رجال من الصنفين السابقين ،وبالرغم من اختلاط الجماعتين في هذا الصنف إلا أنهم لا يندمجون بحكم تميز العرب من الدواوير النبيلة عن العرب من الدواوير الحقيمة بالشجاعة والإقدام وحسن السلوك بالنسبة للسلطات الإسبانية³.

وخلال التواجد الإسباني في بايلك الغرب ،كانت قضية تحرير وهران والمرسى الكبير محور اهتمام السلطة والرعية معا، ولم تتوقف جهود العثمانيين إلى غاية تحرير وهران النهائي سنة 1792م.⁴

لأخذ ما يفتقرون إليه عندهم " ومن خلال هذا التوصيف لحالة هذه القبائل نلاحظ أن هذه المعاملات كانت بمثابة فك الحصار الاقتصادي عن الاحتلال الإسباني .للمزيد من التفاصيل حول وضعية هذه القبائل ينظر: عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسمانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ،تح وتق :محمد بن عبد الكريم ،منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت ،د ط ،د ت ،ص14.

1 - هاشمي براهيم؛ ودان بوغفالة، "القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني"، مجلة الناصرية للدراسات التاريخية والثقافية، ع:1، جامعة معسكر، جوان2017، ص: 193.

2 - عبد القادر المشرفي ، المصدر السابق، ص:13.

3 - أحمد توفيق المدني، المرجع سابق، ص447.

4 - حياة قنون، التواجد الإسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية والإسبانية، مجلة الحوار المتوسطي، ع5، جامعة سيدي بلعباس، ص87.

4-المستوى المعيشي للسكان :

بالنسبة للمدن قد هيئت الأقلية العثمانية على الامتيازات المالية عموما، أما بالنسبة للأرياف فقد حُضت قبائل المخزن و المكلفة باقتطاع الضرائب في الأرياف التي حُضت بامتيازات في دفع الضرائب مثل الاكتفاء بدفع العشور فقط و كذلك الحال بالنسبة لبعض العائلات العريقة و قد أدى هذا إلى عدم التجانس في العلاقات الاجتماعية مما أدى إلى ظهور و تنامي الطبقة كالبرجوازية المحلية و الإقطاعية المحلية¹.

4-1سكان المدن :

لقد تمايزت الطبقات الاجتماعية ببابلك الغرب سواء من حيث الوظائف أو الترتيب الاجتماعي أو مستوى الدخل وقد ساهمت عدة عوامل في هذا التباين ،وقد ساهم التباين الاجتماعي في خلق الكثير من الفوارق داخل المجتمع وقد تجسدت هذه الفوارق في الطبقة والتمايز بين مختلف الفئات و من بينها :

-الارستقراطية الحضرية :

تكوّنت الطبقة الأرستقراطية من الفئات الحاكمة من مختلف الطوائف سواء الأقلية العثمانية أو فئة الكراغلة والحضر والتي كانت تمثل الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية²، و قد تشكلت من الفئات التالية:

-الفئة الحاكمة :

كانت الفئة الحاكمة معروفة بالخاصة وقد ميّزها عددها المحدود، إضافة إلى كونها تتشكل من أفراد الجيش ذوي الأصول العثمانية، كما ميّز هذه الفئة بصفة عامة أنها كانت ذات أصول أجنبية بمعنى أنها فئة عسكرية غير محلية تمارس الوظيفة السياسية³.

1 - ليلي يسعد وبركة بلاغماس، المرجع السابق، ص111.

2 - بومدين دباب ، المرجع السابق، ص 140.

3 - فتيحة الواليش، المرجع السابق، ص113.

انحصرت هذه الفئة في العسكريين من الأصول العثمانية وقد كان لهذا الأمر ما يبرره وهو الحفاظ على الطابع العثماني للدولة فالوظائف الإدارية كانت من اختصاص هذه الفئة، أما الوظائف الأخرى فقد تشكلت من فئة الحضر و الكراغلة و الأجواد والذين تغيرت طريقة التعامل معهم مع بداية القرن 18 بحيث تم الاعتماد عليهم في تولي المناصب المهمة¹. وبالنسبة لبايلك الغرب فقد ارتقى كرغلي واحد إلى منصب الباي ويتعلق الأمر بالباي مصطفى الأحمر المسراتي² خلال الفترة الممتدة من 1735-1748.

وقد امتدت أملاك الأرسنقراطيين وأصحاب المناصب الإدارية الهامة خاصة فئة الحكام لتشمل مدن خارج البايلك مثل ممتلكات الباي محمد الكبير وعائلته بالبليدة ومليانة، وقد تمت الإشارة إلى أن ما نسبته 80% من الممتلكات داخل المدن او خارجها كانت مسجلة باسم عائلات البايات وحاشيتهم وأصحاب الوظائف الإدارية المرموقة، وأما النسبة المتبقية والتي تعد ضئيلة جدا بالمقاربة مع ممتلكات أصحاب المناصب الإدارية والتي تمثلها بعض العائلات الدينية كعائلة السنوسي وابن عبد الله في مستغانم³.

-البرجوازية الحضرية :

تميزت هذه الطبقة بدورها الفعال في حواضر بايلك الغرب، وقد كانت هذه الطبقة تضم فئتين فئة العلماء و الإداريين و التي كان لها دور في الوساطة بين السلطة و باقي السكان، أما الفئة الثانية فكانت ممثلة في الحرفيين و التجار والتي تمثلت الركيزة الأساسية للنشاط الاقتصادي وكانت تضم مختلف الجماعات كالحضر و الكراغلة و الاندلسيين و اليهود.

1 - بومدين دباب، المرجع السابق، ص140.

2 - تولى حكم بايلك الغرب خلال سنة 1735م، وتوفي بمستغانم بعد أن سقي السم ودفن بها مع أخيه أبي الشلاغم. ينظر: بن عودة المزاري، المصدر سابق، ص278.

3 - فتيحة الواليش، المرجع السابق، ص115.

ويمكن تصنيف مستوى الطبقة البرجوازية على أنها طبقة وسطى في ترتيب المستوى المعيشي لمختلف الفئات، وعموما فقد شكّلت الطبقة البرجوازية طبقة غير متجانسة كونها ضمتّ فئتين¹ وهما كالآتي:

-العلماء والإداريون :

تعتبر الفئة الأولى في هذه الطائفة وقد تشكّلت أساسا من الجهاز الإداري والتعليمي وقد أوكلت المهام الإدارية إلى البلدية ذوي الأصول الحضرية إضافة للکراغلة، وقد شكّلت هذه الفئة همزة وصل في الجانب الإداري بين السلطة والسكان، في حين لعبت فئة العلماء دور الوساطة هي كذلك بحكم وظيفتها الدينية والتعليمية².

ويمكن اعتبار فئة العلماء أنها فئة متباينة من حيث ثراء أصحابها³، فهناك شرائح متوسطة الدخل وهناك شرائح بسيطة الدخل والتي تتعلق بالعلماء الذين يمارسون وظائف ثانوية.

-التجار والحرفيون :

شكّلت هذه الفئة المحرّك الرئيسي للنشاط الاقتصادي في بايلك الغرب، تشكّلت من بقية سكان المدن من مختلف الجماعات كالحضر والأندلسيين والکراغلة واليهود وقد اختصت كل مجموعة بنشاط اقتصادي معيّن .

كانت هذه الفئة خاضعة للسلطة الحاكمة التي كانت تملك أدوات الضغط عليها ومنها النظام الضريبي والوضع السياسي في البلاد والذي شكّل عائقا أمام تطوّر النشاط الحرفي والتجاري.

1 - فتية الواليش، المرجع السابق، ص 116.

2 - نفسه، ص 117.

3 - نلاحظ بعض المساواة في وصف فئة العلماء وأدوارهم من قبل بعض الباحثين فقد اعتبروهم فئة منغلقة على نفسها شغلها الشاغل هو الدفاع عن مصالحها الخاصة، كما اعتبروها محتكرة لحق المعرفة وجعلها ذات طابع عائلي ووراثي، إضافة إلى تدعيم هذه السلوكيات بعلاقات القرابة بين العلماء ومع السلطة الحاكمة كما اعتبروها فئة قاعدتها الاقتصادية ناتجة عن ولاءها وخدمتها للسلطة الحاكمة... ينظر: فتية الواليش، نفس المرجع، ص ص 117-118. وينظر: بومدين دباب، المرجع السابق، ص 142.

لكن رغم ذلك فقد وجدت برجوازية تجارية وحرفية نامية في المدن وكمثال على ذلك نجد أن هذه الفئة في مدينة تلمسان كانت ذات أملاك عقارية معتبرة ما سمح لها بالهيمنة على النشاطات الزراعية في هذه المدينة¹.

كان يطلق عليها تسمية الأجواد في بايلك الغرب وكانت هذه الفئة هي من يقود القبائل المخزنية، وقد تمتعت هذه الفئة بعدة صلاحيات ووظائف منها تحريك الرجال للقتال في الحروب، إضافة إلى امتياز جمع واستغلال الضرائب المفروضة على قبائل الرعية. وقد كان لهذه الفئة سيطرة على الوظائف السياسية والعسكرية بالنسبة للقادة وأعوانهم، وقد كان القائد أو مايعرف بالحاكم هو من توكل إليه إدارة المدينة مثل حاكم مستغانم وحاكم تلمسان...².

- الأرستقراطية الدينية :

نظرا لوجود الاحتلال الإسباني في بايلك الغرب لعبت هذه الفئة دورا هاما فقد شاركت إلى جانب السلطة العثمانية للتصدي للوجود الإسباني خصوصا في التحرير الأول والتحرير الثاني من خلال مساهمة طلبة وشيوخ الزوايا من مازونة وغليزان وتموشنت ومجاجة وتلمسان ومستغانم وغيرها للانضمام للجيش العثماني في مواجهة الاحتلال الإسباني³.

وبعد نهاية الوجود الإسباني شهدت العلاقة بين الفئة المخزنية والدينية نوعا من الفتور الذي أدى إلى صراع بين الفئتين بسبب تضارب المصالح بينهما⁴.

سيطرت مختلف فئات الطبقة الأرستقراطية في البايك على اغلب الممتلكات بمختلف أصنافها كالمحلات التجارية والحمامات وغيرها، وعلى سبيل المثال كانت نصف بنايات مدينة معسكر تابعة للعائلات المخزنية

¹ - فتيحة واليش، المرجع السابق، ص 120.

² - Diego de Haido, histoire des rois D'Alger, trad et annoté h,d, de Grammont ,adolphe jourdan, paris, 1881, p499.

³ - بومدين دباب، المرجع السابق، ص 141.

⁴ - Pierre boyer, contribution à l'étude de la politique religieuse des tures dans la regenced'alger du 16 au 19 siècles in "romm", n01, 1966 ;p37.

-الطبقة السفلى(العامة):

تشكّلت هذه الطبقة من بقية سكان المدن سواءا الحضر أو الأندلسيين أو اليهود من ذوي المستوى الاقتصادي الهشّ، ولم يكن لهذه الفئات الكادحة أي أثر اجتماعي كما لم تكن لهم مساهمة في الجنب الإداري والسياسي¹.

إضافة إلى هذه الفئات توافدت على مدن بايلك الغرب العديد من الفئات من ذوي المستوى الاقتصادي البسيط والتي دفعتها الظروف الاجتماعية القاهرة للتنقل إلى المدن بحثا عن العمل وقد تشكّلت هذه الفئة من بعض الشرائح المتسقرة داخل المدن أو المقيمة بصفة مؤقتة، فالشريحة الحضرية مارست الحرف والمهن البسيطة، كما مارست الفئة البرانية المستقرة بعض الحرف والمهن البسيطة سواء في المنازل أو في الورشات والمحلات العمومية. كما شهدت بعض المدن وخاصة تلمسان توافد عدد كبير من سكان المناطق الجنوبية كتوات والسودان الغربي². وقد خضعت الفئات الدخيلة على المدن لتنظيم في شكل مجموعات صغيرة يراقبها مسؤول من نفس الجماعة يطلق عليه لقب أمين³.

4-2-سكان الريف:

لقد مثل سكان الريف غالبية السكان في بايلك الغرب الجزائري وكما ذكرنا سابقا فإنّ البناء الاجتماعي في الأرياف كانت تتحكم فيه نوعية العلاقة مع الحكام⁴، وقد تشكّلت عدة طبقات في المجتمع الريفي بفعل السياسة العثمانية ومدى قوّة العلاقة بين سكان الريف والسلطة ما أدى إلى ظهور العديد من الطبقات وهي كالآتي:

¹ - André Raymond,op cit,p99.

²فتحة الواليش،المرجع السابق،ص123.

³ - Pierre boyer,op cit,p119.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي،المرجع السابق،ص112.

-الارستقراطية الريفية:

تشكّلت هذه الفئة من قبائل المخزن والتي مثّلت الجهاز العسكري في بايلك الغرب ،وقد تمتعت هذه الفئة بعدد الامتيازات وذلك لثرائها ودورها في تسيير شؤون الريف ويمكن تقسيمها إلى الفئات التالية :

- فئة العشائر المخزنية:

كانت تمثل هذه الفئة نموذجًا للإقطاع الزراعي الريفي وذلك من خلال كيفية استغلال الأراضي أو طرق حيازتها، وقد أثرت السلوكات الإقطاعية لقبائل المخزن على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .

ونظرا لتدهور الجانب الاقتصادي خصوصا مع تناقص الموارد المالية البحرية ،ونظرا للحاجة الملحة لتعويض العجز المالي لجأت السلطة للسياسة الضريبية والتي كانت قبائل المخزن عبارة عن أداة لجمعها ، اضطرت السلطة العثمانية إلى الاعتراف بحق ملكية هذه القبائل للأراضي التي يقطنون بها وقد حصلت هذه العشائر على حق الملكية للأراضي من طرف الصكوك التي كان يصدرها قضاة الحواضر الرئيسية بالبايلك¹ .

وقد نتج على هذه الحيازة ، اختلالا في الكثافة السكانية للأرياف، وهو ما دفع بسلطان الأرياف إلى الهجرة للمناطق الجبلية ما أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعيومن هنا يظهر أن علاقة هذه العشائر ببقية السكان كانت علاقة تسلط وتعدي على هذه الأملاك بمنطق القوة².

-فئة الشيوخ والقياد :

وهي صورة من صور الإقطاع في ريف بايلك الغرب تعتبر هذه الفئة الوسيط بين العشائر المخزنية والسلطة العثمانية، وقد كان يتقلد هذه المناصب من تتوفر فيه شروط معينة كالنسب أو المكانة الدينية.

1 - بومدين دباب، المرجع السابق، ص 145.

2 - نفسه.

وقد منحهم السلطة العثمانية الأراضي مقابل دفع ضريبة التولية "حقوق التولية" أو ما يعرف بحق البرنوس وكان يتم أثناء الزيارة السنوية لشيخ القبائل أو القيادة لمقر البايك ويتم تقديم الأموال مقابل التثبيت في المنصب أو تجديد عهدة الحكم، وكانت تتفاوت حسب ثراء القبيلة ووزنها الاقتصادي والبشري:

- فئة الأشراف والمرابطين¹:

لقد تمتعت هذه الفئة بسلطة روحية واحترام كبير من طرف السكان، وقد تم منحهم بعض الأراضي الخاصة بالأوقاف من طرف السلطة العثمانية كما أسند إليهم بعض المهام كالقضاء واختيار رئيس القبيلة وعموما فقد حظي المرابطون بمكانة اجتماعية مميزة سواء في حياتهم أو حتى بعد مماتهم².

- الفئة السفلى (البسيطة):

تكوّنت هذه الفئة من الرعاة والمزارعين و البدو الرحل وهم غالبية السكان وكانوا يستخدمون كخماسة في الأراضي الفلاحية، ومع ذلك فقد كانوا مجبرين على الخضوع لمطالب المخزن المتمثلة في دفع الضرائب³. وقد ساهمت الالتزامات الضريبية الكثيرة في نفور هذه الفئة من خدمة الأرض .

ما يمكن استنتاجه من خلال التطرق للمستوى المعيشي لسكان المدن والأرياف هو أن غالبية السكان كانوا ينتمون للفئات الكادحة والتي دائما ما كانت تتأثر بشدة بالأزمات الصحية والمعيشية بالفقر والحاجة يقضي على السكان في زمن القحط المجاعات، وبعد استعراض الوضع الاجتماعي نتطرق إلى الوضع الاقتصادي كالاتي:

¹ اسم المرابط مشتق من كلمة ربط وتعني الالتزام والتعهد أي أن المرابط يعاهد الله على ألا يتصرف إلا لما فيه خير للإنسانية. ينظر: حمدان خوجة، المرأة، المصدر سابق، ص19.

² حمدان خوجة، المرأة، المصدر سابق، صص 19-20.

³ بومدين دباب، المرجع السابق، ص146،

5-الوضع الاقتصادي:

يعتبر الجانب الاقتصادي من تاريخ الجزائر أداة فعّالة في فهم وتحليل تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني وقد ساهم الوضع الاقتصادي في التأثير بصفة حاسمة على الوضع السياسي والإداري وكذلك الجانب الاجتماعي، ومن هذا المنطلق فمن: مرحلة الانتعاش والازدهار الاقتصادي وقد امتدّت هذه الفترة من: نتيجة لاعتمادهم على مداخيل النشاط البحري والتي كانت تمول الخزينة بأموال معتبرة، جعلت العثمانيين يهتمون ببقية النشاطات الاقتصادية الأخرى¹ ومع تراجع نشاط البحرية الجزائرية وتقلص الموارد المالية، لجأ العثمانيون إلى تعويض هذا النقص باستخلاص الضرائب بمختلف صيغها على المجتمع الجزائري²

5-1-النشاط الفلاحي:

يلاحظ في النشاط الفلاحي الضعف والتقهر بسبب الاعتماد على الوسائل والطرق البدائية التي لم تشهد أي محاولة لتطويرها، إضافة إلى مساهمة طبيعة ملكية الأراضي والتي كانت تحتكرها فئات معينة في تدهور القطاع الفلاحي. ونقصد بذلك الملكيات الخاصة في بايلك الغرب كملكيات بايات الغرب بكل من مسرغين والدار البيضاء بالغرب من وهران وقد كان يتم الحصول على هذه الأراضي إما بالمصادرة أو عن طريق الشراء وقد كانت الملكية ببائلك الغرب تضم حوالي 11250 هكتار تقطنها قبائل المخزن مقابل دفعها للكراء المقدّر ب 12 صاعاً من القمح و12 صاعاً من الشعير والذي قيمته حوالي نصف المنتج¹، وفيما يخص المناطق التي كانت تنتشر بها هذه النوعية من الملكية هي سهول وهران وغريس تلمسان والشلف²

1- فارس العيد، الأوضاع الاقتصادية في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني بالساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية العدد 5-جوان-2017 ص144-145-146.

2- نفسه، ص145.

وما يميز الإنتاج الفلاحي بالبايلك هو المردودية المرتفعة بالنظر إلى نوعية الأراضي الخصبة والمناخ الملائم ، وقد انتشرت زراعة الحبوب في مناطق مختلفة في البايك كسهل غريس ومستغانم وقلعة بني راشد وتلمسان³ .

وقد انتشرت زراعة الأشجار المثمرة كالزيتون والبرتقال والعنب تنتشر في العقول المحاذية للمدن على مساحة 800 هكتار، وساعدها في ذلك وفرة المياه، هذا إضافة إلى زراعة الخضر والبقول، ومختلف المنتجات التجارية كالقطن والكتان، إضافة إلى العسل والشموع وغيرها...

وفيما يتعلق بالثروة الحيوانية فقد كانت منطقة سيدي بلعباس مشتهرة مثلا الأغنام، وما يميز هذه الثروة هو توفيرها لكميات معتبرة من الوبر والصوف التي كانت تسوق محليا وتصدر إلى مختلف البلدان، كما ذكر حمدان خوجة اهتمام سكان معسكر بمضاعفة أجناس الخيل المختلفة وغيرها⁵.

أما بالنسبة للنشاط الصناعي فالمقصود به في هذه الفترة هو الصناعة التقليدية ممثلة في الحرف والصنائع في مختلف حواضر بايلك الغرب الجزائري، إضافة إلى المهن والحرف العائلية في الأرياف⁶.

وقد تركزت الصناعة التقليدية في المهن الرئيسية، كمدينة معسكر المشهورة في ذلك الوقت بصناعة البرانيس والأقمشة التي كانت تستخدم محليا وتصدر إلى الخارج، كما اشتهرت تلمسان بصناعة الأغذية الصوفية والأحزمة، إضافة إلى شهرة تلمسان بصناعة الجواهر والأحجار الكريمة⁷.

¹ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص52.

² - فارس العيد، المرجع نفسه، ص146.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه، ص148.

⁵ حمدان خوجة، المرأة، نق وتحت: محمد العربي الزبيري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2006، ص97.

⁶ - فارس العيد، المرجع نفسه، ص148.

⁷ - بومدين دباب، المرجع السابق، ص 86.

كما اشتهرت ندرومة بصناعة الفخار وجودته، ومازونة بإنتاج الجلود، وعموماً فإن هذه الصناعة كانت لتلبية الحاجيات الأساسية للسكان، والكماليات بالنسبة للفئات الغنية. وفيما يخص الصناعات التحويلية نذكر استخراج واستغلال الملح من السياح المحاذية لوهران ومعالجة الجير قرب مدن البايك¹.

5-2- النشاط التجاري:

كما هو الشأن في مختلف مناطق الايالة شهد بايلك الغرب تجارة داخلية وأخرى خارجية، فأما الداخلية فكانت تتم بواسطة الأسواق سواءً الأسبوعية والسنوية وقد ساهم في تنشيط المبادلات التجارية الداخلية عاملان أساسيان هما:

-تشجيع البايات للأسواق التجارية لفرض نفوذهم على سكان الأرياف.

-إضافة إلى حركية القوافل التجارية عبر أراضي البايك إلى مختلف الاتجاهات².

كما كانت السلطة العثمانية تستخدم السوق لفرض حصار اقتصادي على القبائل المتمردة لمنعها من دخول الأسواق، كما كانت لأسواق المناطق الداخلية التلية أهمية بالغة في تبادل منتوجات الشمال بمنتوجات المناطق الجنوبية³.

وقد كان رجال السلطة يمارسون نوعاً من الاحتكار في تجارة المواد الأولية كالحبوب والجلود والزيت والشمع وغيرها ماجعل الفلاحين يبيعونها بأسعار منخفضة لهم ليستفيدوا منها.

عن طريق بيعها للوكالات التجارية بفائدة تقدر ب60% من ثمن شرائها، وقد أدى هذا الاحتكار إلى خفض الأسعار في الأسواق⁴.

وفيما يخص التجارة الداخلية:

3- فارس العيد، المرجع نفسه، ص149.

2- بومدين دباب، المرجع السابق، ص90.

3 - فارس العيد، المرجع نفسه، ص150.

4 - نفسه، ص150.

كانت التجارة الداخلية في المدن على كل المستويات سواءً تجارة العملة أو الأسواق أو المحلات الصغيرة، وقد شكلت أسواق المدن والجهات، ونذكر منها سوق ندرومة الذي كان يقصده التجار من مختلف المدن كتلمسان قلعة بني راشد...مازونة...وجدة ومغنية. إضافة إلى أسواق مدينة تلمسان التي ساعدها موقعها الاستراتيجي في استقطابها لمختلف المنتوجات الأوربية والمغربية¹، كما يشير حمدان خوجة إلى أهمية موقع وهران الذي جعلها مدينة مزدهرة خصوصاً بعد تحريرها من الأسبان بحيث يقول " وضعها الجغرافي جعل من سكانها تجاراً وذلك كما للتجارة من منافع ولأن الباي مهتم بها".²

أما التجارة الخارجية لبايلك الغرب:

فقد كانت تتم في الطريق البري والبحري، فبرياً كانت تتم العلاقات التجارية مع المغرب الاقتصادي ومختلف الأقطار العثمانية بالمشرق بواسطة القوافل وخاصة قافلة الحج القادمة من المغرب التي تمر عبر الغرب الجزائري، كما لعبت تلمسان دوراً رئيساً في التجارة مع المغرب الأقصى خصوصاً بحكم موقعها الجغرافي.

أما عن طريق البحر فكانت تتم مع مختلف الدول الأوربية، ومن بين أهم الموانئ التي تحكمت في التجارة الخارجية ميناء أرزيو وميناء المرسى الكبير، وأهم البضائع المصدرة تمثلت في الحبوب والموانئ.

لكن السلطة العثمانية وبدل تنمية التجارة الخارجية لإنعاش خزينة الدولة، فرضت العديد من العراقيل الإدارية.

إضافة إلى منح امتيازات للأسبان بعد تحرير وهران، وتمثلت هذه امتيازات في السماح لهم باحتكار صيد المرجان من غرب وهران إلى حدود المغرب الأقصى.³

1 - جميلة مشرفي و ودان يوغوفالة، الأسواق في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830، مجلة الناصرية

للدراستات الاجتماعية والتاريخية، مج 8، ع1، جوان 2017، ص 132.

2 - حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص 70.

3 - فارس العيد، المرجع السابق، ص152.

يضاف إلى هذا تقهقر التجارة الخارجية لعدة عوامل أهمها سيطرة فئة اليهود عليها وهو ما سنتطرق له لاحقاً¹.

يضاف إلى ذلك التجارة مع بلاد السودان الغربي فقد كانت وهران وتلمسان منطلقاً للقوافل التجارية باتجاه بلاد السودان ومن جملة المصدرة للسودان - الأقمشة والأحصنة والسروج والأواني إضافة للسلع الأوربية كالحلي والعطور ومواد الصباغة والسكر. وتعود القوافل محملة بالعبيد والذهب والملح والعاج وغيرها².

3-5- الضرائب :

مع تناقض مداخل الأسطول الجزائري أصبح الحل في تعويض النقص الفادح في خزينة الإيالة هو الضرائب بمختلف الشرائح الاجتماعية مع السلطة العثمانية، وقد ارتبطت الضرائب بنوعية الملكيات فالملكيات الخاصة تؤخذ منها ضريبة العشور والزكاة وهي الضريبة المفروضة شركاء أما الأراضي التابعة للبايلك فكانت تؤخذ منها محاصيل عينية إذا استغلت من طرف الخماسة.

وفي حالة كرائها للقبائل المخزنية أو أصحاب النفوذ فكانت تؤخذ منها الضريبة المحددة لكرائها سنوياً أو ما يصطلح عليه بـ"الحكور"، إضافة إلى ضريبة اللزمة³ التي كانت تدفعها قبائل الرعية سنوياً⁴.

¹--Isabacbloch.lesisrelites d 'Oran de 1792 A1815 .D 'après des documents inédits. au Jourdan éditeur .place du gouvernement.1886.p8

3- صدام رزيم، التجارة الخارجية لبايلك الغرب بعد تحرير مدينة وهران سنة 1781. مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية المجلد. العدد 2. أكتوبر 2019، ص235.

3- من بين العديد من الامتيازات التي حضي بها قبائل المخزن لدى العثمانيين هو أنهم كانوا معفيين من ضريبة اللزمة التي كانت تفرضها السلطة على القبائل الأخرى، لكن في المقابل وكما ذكرنا سابقاً يقابل هذا الإمتياز تقديم بعض الخدمات الإدارية ومنها المساهمة في جمع الضرائب التي تفرض على غيرهم من القبائل الخاضعة للعثمانيين. ينظر: محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق وتج: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2، ص39.

4- فارس العيد، المرجع السابق، ص154.

وقد كانت القبائل تدفع ضرائب إضافية في بعض المناسبات كضريبة الدنوش التي تقدم كل ستة أشهر والتي بواسطتها يشتري الباي جل الهدايا المخصصة لداي الجزائر¹. كما أن هناك ضريبة الفرح أو البشارة وهي السنوية وتدفع خلال توليه بأي جديد أو إعادة تثبيته في منصبه، إضافة إلى ضريبة خيل الرعية، والتي تقدم عينا وتشمل الخيول المقدمة للبايلك وبعض الضرائب الاعتيادية كضريبة "حق البرنوس" و"مهر الباشا" و"حق الزمام" وغيرها.

يضاف إلى هذه الضرائب التي كانت تدفعها قبائل الرعية هناك ضريبة الغرامة التي كانت تسدد نقدًا وعينا بعد عملية إحصاء الأملاك بمعونة شيوخ القبائل. أما بالنسبة للمدن فقد كانت هناك ضرائب معروضة على النفايات المهنية والمحلات التجارية إضافة إلى الحقوق الجمركية والضرائب المتعلقة بالأسواق². إضافة إلى الضرائب المفروضة على سكان المدن والتي من أهمها ضريبة ضيفة دار الباي بالنسبة للمدن التي لا توجد بها حميات عسكرية، أما بالنسبة للمدن التي بها حميات عسكرية فيدفعون ضريبة دار السلطان حيث يتم تغيير الحامية العسكرية بحامية عسكرية جديدة. هذا إضافة إلى الاستفادة من عوائد الأوقاف والأملاك التي تبقى شاغرة بدون وريث شرعي³. وقد كان يتولى جميع الضرائب أمناء المهن أو أمين الأمناء الذي يتم اختياره وفق شروط أهمها الأقدمية والأمانة وحسن السلوك⁴.

هذا إضافة إلى الحقوق الجمركية والرسوم المفروضة على رسو السفن والتي يقوم باستخلاصها قائد المرسى مع بعض الأعوان أو ما يسمون بـ"الصرافيين".

هذا إضافة إلى المكوس ورسوم الأسواق والتي كان يستخلصها "خوجة الرحبة" إضافة المحتسب¹ لذلك فإن رجال السلطة العثمانية قد ركّزوا على جباية الضرائب خدمة للمصالح

¹ فارس العيد، المرجع السابق، ص155.

² بومدين دباب، المرجع السابق، ص122.

³ فارس العيد، المرجع نفسه، ص155.

⁴ بومدين دباب، المرجع نفسه، ص123.

الشخصية ونجد إشارة في تعليق حمدان خوجة الدالة على استفادة رجال السلطة من الضرائب على التجار ما ذكره حمدان خوجة في خضم الحديث عن مدينة وهران بقوله : "ويأخذ الباي من التجار رسما مقدار ، كلا من السلع ويتبع هذه البضائع إلى السكان نقد أو مقابل حبوب ومواشي كالأبقار والأغنام .وبهذه الحالة يكون هو أيضا تاجراً².

وعموماً فإن إهال المصلحة العامة واستخلاص الضرائب بصفة مبالغ فيها أدى إلى إرهاب المستوى المعيشي للسكان وإضعاف اقتصاد الجزائر وبالتالي كان تدهور الوضع الاقتصادي عاملاً في انهيار الحكم العثماني.

6- الوضع الثقافي:

بالرغم من من تدهور الوضع الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي في بايلك الغرب الجزائري إلا أنّ المشهد الثقافي كان أحسن حالا في أواخر العهد العثماني من خلال وجود حواضر علمية قامت بأدوار ثقافية جلية مثل تلمسان ومازونة ومعسكر وغيرها، وقد كان من ثمار وجود هذه الحواضر بروز علماء مميزين في مختلف التخصصات³.

وقد ساهم في تنشيط الحركة العلمية دعم بعض رجال السلطة العثمانية للجانب العلمي مثل ما قام به الباي محمد الكبير من بناء المؤسسات العلمية بوهران ومعسكر فكان عاملاً من عوامل الإقبال على طلب العلم، إضافة إلى إكرامه للعلم والعلماء وتشجيعه لطلبة العلم وهذا ما أكدّه كاتبه ابن سحنون الراشدي بقوله "...اتسع حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة وكثر طلبة العلم وتشوّق كل أحد للتدريس واشتد الحرص على التعليم..."⁴.

وعموماً فقد سيطر التصوف على الحياة العلمية في العهد العثماني⁵، ومن بين مظاهر تصدر المتصوفة للمشهد الثقافي والاجتماعي اعتماد العثمانيين عليهم لحث الناس على الجهاد بل

¹ - بومدين دباب، المرجع السابق، ص123.

² - حمدان خوجة ، المرأة، المصدر السابق ، ص59.

³ -سعدية رقاد، المؤسسات العلمية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، مجلة عصور

الجديدة، مج:8، ع:2، ديسمبر، 2018، ص122.

⁴ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص68.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص111.

ومشاركة طلبة الزوايا في عملية تحرير وهران سنة 1792م بلغ عدد الطلبة حوالي 500 طالب حسب العديد من المصادر ¹.

لقد كسب أهل التصوّف مكانة اجتماعية جعلت عامة الناس تعتمد عليهم اعتمادا كليا لمواجهة الأزمات الاجتماعية في ظلّ غياب رجال السلطة عن التكلّف بحلّ هذه الأزمات ،وقد حافظ المتصوّفة على هذه المكانة من خلال تقديم المساعدات للفئات المحرومة،فضلا عن دور الزوايا التعليمي والجهادي².

ومن خلال حديثنا عن تركيبه المجتمع في بايلك الغرب الجزائري نرى أنّه يتشابه في الكثير من الخصائص سواء في المدن أو الأرياف.

وعموما فقد ساهمت الخلفيات الثقافية لمجتمع بايلك الغرب و في نظرتة للأوبئة وطريقة تعامله معها³.

وقد ساهمت الظروف الاجتماعية والاقتصادية في التأثير الشديد للأزمات الحاصلة في بايلك الغرب كونها ظروف متدهورة زادت من حدّة الأزمات ،كما أن الظروف المناخية كانت عاملا حاسما في تأزّم الأوضاع الصحية والغذائية.

وبالإضافة إلى العوامل الطبيعية كانت هناك عوامل بشريّة ساعدت في ذلك دون أن ننسي تزامن حصول الكوارث مع بعضها وهو ما سنيّنة من خلال عرض التطوّر الكرونولوجي للأزمات خلال الفصل الآتي .

¹بن عودة المزاري،المصدر السابق،ص261

²قدور بوجلال،المرجع السابق،صص280-281.

³انتقدت الباحثة فلة القشاعي موقف المجتمع الجزائري تجاه الأزمات واعتبرت أن فكرة الاستسلام للقضاء والقدر كانت سائدة لدى العامة دون التفكير في اللجوء للحلول العلمية لتجنب الأضرار الممكنة.ينظر:فلة القشاعي،المرجع السابق،ص428.

الفصل الثاني:

التطور الكرونولوجي للأوبئة والمجاعات وأسباب حدوثها

1- أبرز محطات وباء الطاعون ببايلك الغرب الجزائري:

2 -الأوبئة والأمراض الأخرى

3- أهم المجاعات ببايلك الغرب

4- عوامل ظهور الأوبئة وانتشارها

6-أسباب حصول المجاعات

7- استنتاج عام حول المجاعات

لقد عمّت الأوبئة مختلف مناطق الإيالة الجزائرية وبالأخص الجهة الغربية، وقد تركزت بمناطق معينة بشكل أكبر ويعود ذلك إلى عديد العوامل منها ارتفاع نسبة السكان إضافة إلى وجود مناخ مساعد للانتشار بحكم مواقع المدن وحيوية الحركة التجارية فيها¹.

كما تعرض بايلك الغرب لمجاعات مهلكة سببت المآسي المستمرة للمجتمع الذي لم يكن ليستريح من أزمة صحية حتى تعقبها أو تتزامن معها أزمة غذائية قاتلة.

لذلك سنحاول في هذا الفصل التعرّض لأهم محطات الوباء والمجاعات وترتيبها زمنيا كالآتي:

1- أبرز محطات وباء الطاعون ببائلك الغرب الجزائري:

خلال القرن الثامن عشر عرفت الإيالة الجزائرية على عموما وبائلك الغرب خصوصا موجات متكررة لوباء الطاعون نحاول ترتيبها زمنيا بما توفر لدينا من معطيات ونصوص تاريخية. مع بداية الثلث الأول من القرن الثامن عشر تذكر العديد من المصادر أنه من بين الأسباب الرئيسية لعودة وباء الطاعون هو انتشار الجراد في كامل الإيالة خلال سنة 1700م²، والذي طال بقائه مسببا عددا معتبرا من الضحايا قدر بحوالي 45000 ألف ضحية في مختلف مناطق الإيالة³.

خلال تتبع ما توفر من مصادر لا نجد إشارات صريحة لوجود الوباء أو تأثيراته في بايلك الغرب خلال الثلث الأول من القرن 18م، ما عدا إشارة جين مارشيك "marchika" الذي يذكر وفاة العشرات من المساجين الإسبان بوهران خلال 1702م⁴، وبالنسبة للمصادر المحلية فإنه خلال سنة 1734 تمت الإشارة إلى وفاة الباي ابن عودة يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي والذي توفي بتلمسان متأثرا بالوباء⁵، ما يدل على انتشاره بالمنطقة.

¹خير الدين سعدي، المرجع السابق، ص142.

² Jean marchika, op cit, p70.

³ Ibid, p73.

⁴ Ibid, p73.

⁵ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص19.

خلال سنة 1737م، فسمي هذا العام بعام الطاعون، وقد راسل القنصل الفرنسي فاليار "valliere" مصلحة الصحة بمرسيليا بالعبارات التالية: "يعود من جديد الطاعون، محدثا خسائر كبيرة في كل الايالة، يحتمل أن تكون العدوى قد تسربت من اسبانيا ...".¹

تمت الإشارة إلى وجود الوباء بمدينة تلمسان مع بداية 1738، لينتقل إلى المناطق المحاذية لها خاصة مدينة وهران وما جاورها، وقد تزامن هذا الوباء مع تعيين يوسف بن مصطفى بوشلاغم² بايا على الجهة الغربية خلفا لوالده³.

وقد حاول يوسف بوشلاغم أثناء فترة حكمه السيطرة على النظام في البايك ومحاولة استرجاع وهران المحتلة من طرف الإسبان.

ما يميز وباء 1738م هو انتشاره في بايلك الغرب وقضائه على الباي يوسف ولد بوشلاغم كما تشير الكثير من المصادر⁴، إلا أن هذا الوباء يبقى يثير تساؤلات عديدة حول مصدر انتقاله برا أو بحرا عن طريق سفينة قادمة من الإسكندرية⁵.

ازدادت حدة الطاعون خلال سنة 1740م، فنجد أن الوباء ضرب بشدة مدينة مستغانم وضواحيها وقد نتج هذا بفعل المجاعة القاسية الذي سبقته خلال 1738م والتي تسبب فيها تلف المنتوجات الزراعية ويعود مصدر طاعون 1740 إلى فرنسية قادمة من مدينة الإسكندرية⁶.

¹قلة القشاعي، المرجع السابق، ص109

² هو أحد بابايات الجهة الغربية، تولى الحكم سنة 1686 وهو أول من جمعت له إمارة مازونة وتلمسان، خلال فترة حكمه تم تحرير مدينة وهران امن الوجود الاسباني سنة 1708 ونقل عاصمة البايك إلى مدينة وهران لكن هذا التحرير لم يدم طويلا فقد احتل الإسبان المدينة مرة ثانية في 1732، لينقل الباي مصطفى عاصمة البايك إلى مستغانم حيث توفي بها سنة 1734. ينظر: بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص275.

³ خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص153.

⁴ Jean marchica, opcit, p78.

⁵ مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، المرجع السابق، ص47.

⁶ Jean marchika, op cit, p78.

حيث أشار قائد السفينة إلى ضرورة تطبيق الحجر الصحي، إلا أن الداوي إبراهيم أمر بإنزال البضائع وتسويقها، هذا التعنت من طرف الداوي تسبب في انتشار الوباء بشكل خطير مسببا موت الآلاف من الضحايا.

خلال 1741 ظهر الطاعون بمستغانم دام لعام ثم اختفى¹، وقد خلف انتشار الوباء حوالي 70 ألف ضحية ما بين 1740-1741م في كامل الإيالة².

خلال 1755 اشتدت وطأة الطاعون بسبب المجاعة المروعة والزلازل التي حدثت، هذا ما أدى إلى خسائر بشرية معتبرة في معظم مناطق الجزائر ويمكن الإشارة إلى عدم وجود معلومات توثق تعرض بايلك الغرب للوباء خلال هذه الفترة إلى غاية سنة 1778³.

يذكر "مارشيك" marchika أن الوباء انتشر بسرعة رهيبة خلال سنتي 1778 و1779 في بايلك الغرب لكنه لم يذكر أي تفاصيل حول عدد الضحايا أو حجم الخسائر⁴.

كما يتحدث عن هذه الفترة "استر هازي" Esterhazy الذي يذكر أنها تزامنت مع تولي الباي محمد الكبير الإيالة الغربية حيث قضت المجاعة على عدد كبير من الضحايا⁵، وقد سبق هذا الوباء مجاعة خلال فترة تولي الباي خليل الجهة الغربية وقد أشار إليه مسلم بن عبد القادر بقوله ((وقع في عهد هذا الباي قحط شديد ودام حتى منتصف 1777، ثم زال وأخصب الناس))⁶.

¹Ibid,p87.

² فلة القشاعي، المرجع السابق، صص 109-111.

³ تميزت هذه الفترة بخمود الوباء الذي غاب لما يقارب 14 سنة عن كامل الإيالة الجزائرية. ينظر: نفس المرجع، صص 116.

⁴Jean marchika ,op cit.p108.

⁵ أحمد بن سحنون الراشدي -الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني -تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي -عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، 2013، ط1، صص 144.

⁶مسلم بن عبد القادر ،المصدر السابق، صص 22

خلال عام 1786 حلّ الوباء بوهران ومعسكر وقد سبق هذا الوباء مجاعة شهدتها وهران وضواحيها حتى امتدّت إلى معسكر¹، ويذكر إن الباي عندما علم بحلول الوباء خرج هو وحاشيته خارج المدينة خوفا من الوباء².

ويعبر المزارى على شدّة الطاعون وردة فعل الباي محمد الكبير بقوله: "ثم حدث بأيامه الطاعون العظيم الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله قط إلى أن مات به جلّ الناس بدوا وحضرا وآل فيه الأمر إلى أن انتقل أهل الحضر والباي بأهله ومخزنه إلى البدو³."

وتتفق أغلب المصادر التي أرّخت لهذا الطاعون على فظاعة ما وقع في الجهة الغربية خلال 1786م والذي تزامن مع مجاعة رهيبة فقد أفرزت سلوكيات خطيرة ومنها أنّ شدّة الجوع دفعت بالناس إلى أكل المحرمات مثل أكل لحم الخنزير وشرب الدم بل وحتى أكل لحوم البشر⁴.

أثناء مرور الزياني على مدينة تلمسان سنة 1789م أشار إلى وباء كبير حلّ بها وأنّه خرج فارّا منها لكنه أشار إلى كثرة الضحايا بقوله ((فما نزلنا منزلا إلّا وجدنا أهله يدفنون موتاهم))⁵، وهذا يدل على أنّ الوباء خلّف عدداً كبيراً من الضحايا.

خلال شهر أكتوبر من عام 1790 وقع بوهران زلزال كبير انهارت على إثره المدينة وضواحيها وقد استمر عبر هزّات متكرّرة إلى غاية 22 نوفمبر وقد قدر عدد ضحايا هذا الزلزال حوالي 3000 ضحية⁶.

¹ناصر الدين سعيدي والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص90.

²مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص 54 .

³ ابن عودة المزارى، المصدر السابق، ص298.

⁴J,l,Guyon,opcit, p347.

⁵أبو القاسم الزياني، (1991)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برّا وبحرا تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1992، ص184.

⁶Walsin Esterhazy, op.cit, .p189.

بعد هذا الزلزال عرفت وهران خلال سنة 1792 مجاعة كبيرة وصل الأمر بالناس من خلالها إلى أكل لحوم البشر والخنازير وشرب الدم¹.

أعقب هذه المجاعة طاعون خلال سنة 1794 جعل المدينة خاوية على عروشها²، وقد أطلق عليه "طاعون عثمان" وعام "حبوبه عثمان" نسبة لعثمان ابن الباي محمد الكبير³ الذي توفي نتيجة لهذا الوباء⁴.

مع استمرار هذه الموجات الوبائية أبدى القناصل الأوروبيون بالمغرب الأقصى انزعاجهم وقلقهم من هذه الأوضاع وذلك لوجود اتصالات بحرية بين وهران والمغرب وما يؤكد ذلك هو أن هؤلاء القناصل بطنجة المغربية اقترحوا خلال سنة 1793 على السلطان المغربي مولاي سليمان تطبيق الحجر الصحي على الحدود الشرقية مع الجزائر، كما تم تطبيق الحجر خلال سنة 1797 على جميع السفن القادمة من وهران وشّل جميع المواصلات مع الحدود الشرقية للمغرب⁵.

خلال سنة 1798 اجتاح الطاعون مدينة تلمسان (امتد إلى المغرب إلى غاية 1804)، ثم عاد مجدداً إلى وهران في 23 مارس عام 1799 من خلال وفاة أحد الحجاج الأربعة عشر القادمين على متن سفينة تركية بعد وصولها في 17 مارس⁶، وقد أكد وجود هذا الوباء أحد الأطباء المحليين وقد أشارت المصادر إلى أن الوفيات في هذا الطاعون كانت تنتشر

¹Ibid,p 189.

² بالرغم من حلول الطاعون بمدينة وهران فإنه وجد المدينة خالية بفعل الزلزال سنة 1790 والمجاعة الرهيبة التي تلت هذا الزلزال ينظر: مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص56.

تشير العديد من المصادر إلى أنه مع بداية تولي الباي للحكم شهدت المنطقة مجاعة كبيرة قضت على عدد كبير من السكان ³ للمزيد من المعلومات، ينظر: Esterhazy.op cit.p190 في المنطقة

⁴ Jean marchika, op cit, p125.

⁵ محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، صص 87-89.

⁶ مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص57.

بشكل رهيب بحيث تسجّل في اليوم 15 ضحية¹، ثم ارتفعت وتيرتها وامتدت إلى المدن المجاورة، تاقدمات ومعسكر وتلمسان وقد اختفى هذا الوباء في العشرة أيّام الأولى من شهر جوان².

وقد تزامن هذا الوباء مع الفترة التي تولى فيها الباي محمد عثمان³ ابن الباي محمد الكبير للإيالة الغربية ويشير إلى ذلك مسلم بن عبد القادر بقوله "وحدث في أيامه الطاعون الجارف الذي مات به جل الناس وكثير من الشخصيات العلمية كالسيد عبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زرفة، والسيد الهاشمي وابن عمهما الفقيه مؤلف الرسالة القمرية مصطفى بن عبد الله وغيرهم من الأعيان⁴".

ما يمكن استنتاجه من المعطيات السابقة هو أنّ الوباء خلال سنوات 1786 و1787م كان من أشدّ الأوبئة خلال العهد العثماني وأكثرها فتكا بالسكان.

أما المرحلة الممتدة ما بين 1805 إلى 1815، فقد تميزت بخمود الوباء من إيالة الجزائر التي بقيت تعاني من المجاعات المزمّنة الناتجة عن اجتياح الجراد الذي تسبب في نقص الإنتاج الفلاحي وانعدامه في مناطق متعددة، يقول العنتري: "انزل الله القحط على الخاص والعام، حتى صار العباد يأكلون لحوم بعضهم من شدة الجوع وانقطع الطعام واستمر ذلك مدة سنة كاملة، ثم عفي (كذا) الله تعالى وزالت تلك المجاعة الواجعة⁵".

¹إذا ما أردنا إجراء عملية حسابية بسيطة فإن معدل 15 ضحية في اليوم يقضي على أكثر من ألف ضحية خلال الفترة السالفة الذكر

²Jean marchika-,op cit, p145.

³ هو عثمان بن محمد بن عثمان تولى الحكم خلفا لأبيه سنة 1799 وبقي في الحكم ثلاث سنوات نقل مقر الحكم من البرج الأحمر إلى القصبة، اشتغل ببناء القصور والحدائق، وأقبل على مجالس اللهو والطرب وأهمّل أمور الرعية، وعندما علم به باي الجزائر عاقبه ونقله إلى البليدة إلى غاية وفاته. ينظر: بن عودة المزارعي، المصدر السابق، ص ص 299-300.

⁴ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص26.

⁵صالح العنتري، المصدر السابق، ص28.

بعد فترة الاستراحة من موجة الأوبئة يشير مار شيكا "marchika" إلى اشتداد الوباء في وهران خلال سنة 1817 على حسب تعبيره "كان الناس يموتون في الشوارع"¹ وهنا لا يورد أي إحصائيات توثق أعداد ضحايا هذا الوباء.

وتتزامن عودة موجات الوباء مع تولي الباي حسن بن موسى الباهي² للإيالة الغربية خلال 1817 وهي الفترة التي تكررت فيها فترات ظهور الوباء على حد تعبير المزارى "وحدث بوقته الوباء العظيم العسير وتكرر رجوعه بعد ذهابه إلى أن مات به الخلق الكثير"³ كما واصل الوباء انتشاره خلال 1818 بحيث تأثرت به مدينتي وهران وتلمسان⁴، وبالرغم من انخفاض وطأة هذا والوباء بمختلف مناطق الإيالة إلا أن بابلك الغرب وخاصة أن وهران وآرزيو بلغ عدد ضحاياهما 7000 ضحية⁵.

استمر الوباء خلال 1819 فقد تعرضت كل من معسكر ووهران للطاعون الذي كان يقضي على 20 إلى 30 ضحية في اليوم خلال شهر مارس⁶.

استمر الوباء وتكررت عودته وقد فقدت الجهة الغربية خاصة وإيالة الجزائر عامة خلال سنة 1822 أحد أبرز أعلامها على مر العصور العلامة الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري⁷ يوم 15 شعبان 1238هـ الموافق ل 1822م⁸.

¹ Jean marchika .op.cit .p162.

² هو ثامن بايات وهران وآخرهم، تولى بابلك الغرب خلال سنة 1817 م وخلال فترة توليه حدثت ببابلك الغرب أمور كثيرة قومتها ثورة التيجانيين لعدة سنوات... للمزيد من المعلومات ينظر: بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص ص 349-360.

³ نفسه، ص 350.

⁴ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 143.

⁵ نفسه، ص 145.

⁶ نفسه.

⁷ هو محمد ابن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن ناصر الجليلي المعسكري، ولد بناحية جبل كرسوط حوالي 1150هـ / 1737م له تأليف في مختلف العلوم والفنون وللتوسع أكثر حول ترجمته ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977، ص 18.

⁸ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 30.

2- الأوبئة والأمراض الأخرى:

بالإضافة إلى الطاعون هناك أوبئة أخرى ظهرت خلال هذه الفترة في الجزائر لكن لا توجد إشارات صريحة تحدثنا عنها لعدة أسباب ونذكر منها ما تعلق بهذه الأوبئة والأمراض فقد كانت محدودة الانتشار زمنيا ومكانيا، إضافة إلى أن تأثيرها كان أقل خطورة من أوبئة الطاعون وإلى جانب ذلك نرجح أن عدم تشخيص الأمراض ومعرفة أنواعها حالت دون التعرض لها ووصفها. ومن خلال عرضنا للأوبئة الأخرى فإننا لا نجد إشارات صريحة فيما يخص بابلوك الغرب لذلك سنشير إليها في كافة المناطق.

2-1- وباء الجدري (la variole):

لقد تعرضت منطقة شمال إفريقيا خلال الاحتلال الروماني لهذا الوباء لكن مع ضعف التشخيص تم تصنيفه على أساس أنه طاعون، وكان من السباقين لوصف هذا الوباء الأطباء المسلمون كالرازي ثم ابن رشد وابن زهر وابن سينا وغيرهم¹.

وبخصوص انتشار الجدري خلال القرن 16م نشير إلى ظهوره في أوساط الحامية الإسبانية في بجاية 1509 ثم 1560، وخلال الفترة المدروسة ظهر خلال سنة 1789 ثم سنة 1803 وخلال سنة 1817 تزامن ظهور الجدري مع الطاعون وقد كانت الإصابات بالجدري كثيرة بالنسبة للأطفال كما اشتدت العدوى لدى كبار السن ما أدى إلى كثير من الوفيات².

2-2- وباء التيفوس (typhus):

يعدّ وباء التيفوس من أخطر الأوبئة بعد الطاعون والكوليرا، وقد وفد التيفوس بمختلف أنواعه وبالنسبة للتأثيرات فقد أصاب الحاميات العسكرية الإسبانية في بجاية، كما توجد معلومات عن

¹مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص 75.

² نفسه، ص 76.

حصوله خلال سنة 1826¹، إضافة إلى مرض الزهري (petite vérole) الذي عانى منه السكان خاصة سنة 1792، وكذلك سنة 1817، وقد كان الأسرى من أهم ناقلي العدوى. كما عانت الجزائر من الحمى بمختلف أنواعها المترددة والمتواترة (fièvre rémittentes et récurrentes) ومن بين الأنواع نذكر الحمى الصفراء وحمى الصيف وحمى المستنقعات والمعروفة بالملا ريا (malaria) والتي كانت تحصل بسبب المياه الملوثة في بعض السهول كسهل متيجة، ومن بين الفترات التي عانت منها الإيالة خلال الفترة المدروسة سنتي 1765 و 1810².

أما الفترة الممتدة من 1823 وإلى غاية 1830 فقد أشارت المراسلات والتقارير القنصلية إلى الصحة الجيدة في بايلك الغرب دون التعرض للوباء³.

وهنا يمكن تفسير هذا الهدوء والاستراحة من الأزمات الصحية بعامل مهم جدا وهو تعرض البلاد للحصار الأوربي المستمر، فقد أدى انسداد المسلك البحري بفعل الحصار البحري الذي إشتد بفعل الحصار الانجليزي ثم الفرنسي على السواحل الجزائرية ما أدى إلى تقليص حركية الموانئ الجزائرية مع المشرق الإسلامي سواء من ناحية النشاطات التجارية أو حركة تنقل الحجاج وقد كان هذين العاملين من بين العوامل الأساسية في تفهقر الأحوال الصحية.

وقد صاحب تدهور الأوضاع الصحية سوء الأحوال المعيشية، فقد عانى المجتمع الجزائري من مجاعات قاسية تزامنت في كثير من المرات مع الأوبئة ما جعل تأثيراتها تشمل مختلف المجالات لذلك سنحاول عرض المجاعات التي حلت بالجهة الغربية وفق الترتيب الزمني لحصولها .

3- أهم المجاعات ببيلك الغرب:

¹قلة القشاعي، المرجع السابق، ص 260.

²قلة القشاعي، المرجع السابق، ص 257-258.

³نفسه، ص 160.

إضافة إلى الأوبئة التي شهدتها البايك ظهرت بالإيالة 37 مجاعة خلال القرن الثامن عشر تسبب الجراد في ستة عشر منها وخاصة خلال السنوات 1710 التالية: 1724، 1716-1725-1778-1779-1780.

بالنسبة للمصادر المحلية لا نجد إشارات واضحة حول حصول المجاعات في باييك الغرب إلى غاية 1776، بحيث يشير المزارعي أنه في عهد الباي خليل¹ حصل قحط عظيم دام سنة ونصف والأكد أنه أحدث أزمة غذائية وهذا ما أشار إليه الشاعر الشعبي سيدي لخضر بن خلوف² في إحدى قصائده بقوله:

سِتِين والثلاثين تَقَحَطُ الْعِبَادُ وَنِصْفَ عَامٍ مِنْ بَعْدِ تَذَهَبِ الْكُشَرَا³

في عهد الداوي محمد بن عثمان شهدت الجهة الغربية مجاعة مروعة سنة 1791، وقد تأثرت بها معسكر مقر باييك الغرب بهذه المجاعة حيث ورد خبرها في وثيقة لبايك وهران حررها كاتب الباي حسن، وقد اضطر الناس إلى أكل المحرمات.

أمام هذا الوضع لجأ الباي محمد الكبير إلى استيراد الحبوب من أوروبا وبيعها بأسعار منخفضة في السوق وتوزيعها بالمجان على الفقراء، كما أعفى العشائر العاملة في الفلاحة من دفع "العشور" المفروض عليهم شرعا وبقي هذا العام معروفا بعام الشر⁴.

جاءت المجاعة في عام 1794 عقب غزو الجراد للبلاد، فارتفعت الأسعار، أما عام 1798 وكما ذكرنا سابقا فإنه مع تولي الباي عثمان بن محمد الكبير تسبب الجفاف أيضا في المجاعة خصوصا مع فساد المنتجات الفلاحية وقد ساهم في ذلك انتشار الجراد¹.

¹ -ويعرف بالحاج خليل تولى الحكم خلفا للباي إبراهيم الملياني، وكان مبغضا للعلماء والأولياء وقد توفي بعد مرض أصابه بسبب دعاء أحد الأولياء عليه، توفي بتلمسان سنة 1778 ينظر: محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتقا: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2013، ص 1، ص 259-260.

² - هو لخضر {لكحل} بن عبد الله بن خلوف وأمه "كله" بنت سيدي يعقوب الشريف، دفين جبال سيدي موسى نواحي عشعاشة، أنظر: جمعية آفاق مستغانم، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، ج01، دار الغرب، وهران، 2006، ص 20.

³ بن عودة المزارعي، المصدر السابق، ص 289.

⁴ مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات ...، المرجع السابق، ص 214.

سنة 1800 في ظل حكم مصطفى باشا ونتيجة لوصول الجراد وحلول الجفاف تعرضت وهران وضواحيها لمجاعة شديدة، وكان الوباء سنة 1799 قد ترك الحقول بلا حصاد فاستورد الداوي القمح من البحر الأسود².

خلال حكم احمد خوجة 1805-1808 قام مصطفى باشا واحمد بتوزيع الخبز على الفقراء، كون هذه الفترة شهدت ارتفاعا رهيبا في الأسعار لكنها لم تدم طويلا³.

في عهد الباي عثمان حال غياب الأمن دون جني الغلة بحيث خرج الباي لمطاردة جيش سي محمد بن عبد الله الشريف، كما شهدت المنطقة اضطرابات بين القبائل أعاقت جمع المحاصيل والحبوب وعطلت النشاطات التجارية، فاضطر الناس على إثر هذا لأكل المحرمات، وقد شهدت الأسعار خلال هذه الفترة ارتفاعا محسوسا.

تحسن الوضع قليلا بعد هذه الفترة لكن أسعار الحبوب لم تعد لمستوياتها العادية حتى 1808، عادت المجاعة إلى تلمسان في عام 1811 ثم تلتها اضطرابات جعلت باي هران يرسل حوالي 900 جمل محمل بالحبوب إلى تلمسان⁴.

ظهر الجفاف مرة أخرى في منطقة وهران عام 1827، فشهدت المواد الغذائية ارتفاعا شديدا في الأسعار تدخل على أثره الباشا وقام بتوزيع القمح والشعير على السكان لذلك سمي هذا العام بعام خبز الباشا⁵.

ومن خلال الجدول التالي نستعرض الأوبئة والمجاعات التي ضربت بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر:

¹ محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص272.

² حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص131.

³ مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات..، المرجع السابق، ص215

⁴ نفسه، ص217.

⁵ نفسه.

الفصل الثاني: التطور الكرونولوجي للأوبئة والمجاعات وأسباب حدوثها

المنطقة	السنة
تلمسان	1738
مستغانم - تلمسان - وهران	1740
تلمسان	1742
بايلك الغرب (عموما)	1778-1779
وهران - معسكر	1786
معسكر	1787
معسكر	1788
معسكر	1789
تلمسان	1790
تلمسان	1791
معسكر	1793
وهران	1794
وهران	1796
تلمسان	1798
وهران - معسكر - تلمسان	1799

وهران	1804-1802
وهران	1817
وهران	1818
وهران	1819
وهران	1820
وهران-تلمسان	1821
معسكر	1822

جدول يمثل السنوات التي اجتاحت فيها وباء الطاعون بایلك الغرب الجزائري خلال القرن 18 وبداية القرن 19م¹.

من خلال عرض أوبئة الطاعون والأماكن التي تعرض لها بایلك الغرب نبدي بعض الملاحظات من خلال معطيات الجدول كالتالي:

- عند ملاحظة السنوات التي ضرب فيها الطاعون نرى أنه اشتدت وطأته خلال نهاية القرن الثامن عشر بصفة تكرارية خاصة ما بين سنوات (1786-1802).
- نرى أن عامل موقع المدن لا يلعب دورا حاسما في عدد مرات التعرض للوباء ما عدا مدينة وهران الساحلية والتي تعرضت لهجمات الطاعون المتواصلة خاصة بعد تحريرها وزيادة حركيتها التجارية، أما بالنسبة لمدينة مستغانم مثلا وإن كانت ساحلية إلا أنها لم تتل قسما كبيرا من ضربات الطاعون.

¹قلة القشاعي، المرجع السابق، ص167.

الفصل الثاني: التطور الكرونولوجي للأوبئة والمجاعات وأسباب حدوثها

- تعرضت مدينة وهران للطاعون بقوة انطلاقا من سنة 1794 وفي هذا الوقت كانت عاصمة بايلك الغرب وهو ما يفسر بديهيها انتقال الوباء إليها كونها أكثر المدن حيوية كما ذكرنا سابقا.
- رغم أن مدينتي تلمسان ومعسكر كانتا داخليتين إلا أنهما تعرضا بشدة لوباء الطاعون، وهنا يظهر جليا تأثير دور المدينة وحيويتها ونشاطها التجاري خاصة، لذلك نستنتج أن انتشار الوباء يخضع لعامل حركية المدن ونشاطها التجاري والصناعي ومدى استقطابها للسكان لا قربها من الساحل فالموقع الجغرافي لا يلعب دورا حاسما أحيانا في انتشار الوباء وخير مثال على ذلك مدينة مستغانم الساحلية والتي كانت أقل تعرضا للوباء كما أشرنا.
- وبعد عرضنا لهذه المعطيات سنعرض ترتيبا زمنيا لأهم المجاعات التي وقعت بالبايلك لنرى إلى أي مدى تزامن ظهور الأوبئة مع أزمة المجاعات.
- أما بالنسبة للمجاعات فنمثلها في الجدول الآتي:

المنطقة	السنة
بايلك الغرب (عموما)	1776
وهران-معسكر	1793-1791
وهران-تلمسان	1798-1794
وهران-معسكر-تلمسان.	1799
بايلك الغرب	1805
تلمسان	1808
تلمسان	1811

جدول يوضح المجاعات التي ضربت بايلك الغرب خلال القرن 18 وبداية القرن 19

من خلال هذا الجدول نبدي الملاحظات التالية:

- لم تكن فترات ظهور المجاعات في البايك بالحجم الذي ظهرت به الأوبئة من حيث العدد، ولا توجد إشارات صريحة لوجودها إلا مع نهاية القرن الثامن عشر.
- كانت الفترة ما بين (1791-1799) الفترة الأكثر تعرضا للمجاعة بصفة مستمرة وعند مقارنتها بمعطيات الجدول السابق نجد أن هذه المدة هي فترة لتزامن الأزمات الصحية والمعيشية، وهو من دون شك ما أدى إلى تفكك البنية الاجتماعية ونزيف ديموغرافي خطير وهو ما سيأتي بيانه لاحقا.
- من خلال تلك المعطيات السابقة نرى أن المجاعات التي ضربت البايك تتزامن مع الأوبئة.

4- عوامل ظهور الأوبئة وانتشارها:

تعددت الأسباب والعوامل التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في تأزم الوضع الصحي والمعيشي في باييك الغرب الجزائري، وقد تأزم الوضع بمساهمة العوامل البشرية وكذا الطبيعية والتي سنذكر أهمها كالاتي:

4-1- عدم الاحتراز من الوباء:

سنحاول إعطاء نماذج عن عدم المبالاة بخطورة الأوبئة في الايالة الجزائرية فخلال طاعون 1718 تسبب تقاعس داي الجزائر والمتمثل في السماح لسفينة قادمة من الإسكندرية من الرسو بميناء الجزائر والتي أفرغت بضاعتها بالميناء ما تسبب في انتشار الوباء¹. وهناك أيضاً بوباء 1786 الذي انتشر في كامل الايالة الجزائرية بسبب سماح الداوي محمد للسفن الحاملة للوباء بالرسو في ميناء الجزائر². وإضافة إلى التهاون نسجل فرار بعض رجال السلطة من الوباء مثل ما فعل الباوي محمد الكبير حين قرر الهروب إلى البادية خوفاً من الطاعون.

¹قلة القشاعي، المرجع السابق، ص 348

²نفسه، ص 354.

ويشير المزارى إلى ردّه فعل الباى محمد الكبير عند حصول الطاعون قوله "ثم حدث بأيامه الطاعون العظيم الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله قط الى ان مات به جل الناس بدواً وحضراً وآل فيه الأمر إلى ان انتقل أهل العصر والباى بأهله ومخزنه الى البدو في خيام الشّعرضاعين ظعن الأعراب البادية زماناً طويلاً¹.

لكن في حقيقة الأمر فإن رجال السلطة اختلفت مواقفهم في قضية مواجهة الأزمات الصحية وتطبيق الحجر والإجراءات الوقائية فالعديد من الدايات والبايات كانوا يمنعون دخول السفن الموبوءة أو الاتصال بها وكانوا يحرصون كل الحرص على سلامة وصحة السكان وذلك بشهادة الأوروبيين أنفسهم.

وقد أشار إلى ذلك الباحث مصطفى خياطي الذي يذكر أنه اطلع على وثيقة سرية سنة 1830 يعترف فيها وزير الحربية الفرنسي بتطبيق العثمانيين لإجراءات الوقاية وأنهم كانوا يمنعون السفن المشكوك في سلامتها من الرسو في الموانئ².

تبقى مسألة التطبيق الصارم للإجراءات الصحية متوقفة على مدى صرامة ووعي الحكام، لذلك نرى أن هناك الكثير من التحامل من طرف المصادر الأوروبية على رجال السلطة العثمانية حول هذه المسألة ونظرتهم المعتادة للوجود العثماني عموماً وهي نظرة الاتهام والتي تفتقد إلى الموضوعية والإنصاف³.

4-2- تأثير الجانب المناخي:

من المعروف أن هناك بيئات معينة حاضنة للأمراض والأوبئة ومساعدة لانتشارها، كما يشير علماء الأوبئة العلاقة المباشرة بين الطاعون والمناخ، ومما هو ملاحظ رطوبة مناخ

¹ ابن عودة المزارى، المصدر السابق، ص298.

² مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص66.

³ من بين المراجع الجزائرية المعاصرة التي تناولت الوضع الصحي أطروحة فلة القشاعي والتي نرى أنها لم توفق في عديد المسائل ومنها تأييدها لوجهات النظر الأوروبية فيما يخص السياسة الصحية العثمانية بالجزائر، والتي يرى العديد من الباحثين أن العثمانيين لم يكونوا يهتمون بصحة السكان كمار شيكا marchika ودوغرامون de Grammont للمزيد من المعلومات ينظر: فلة القشاعي، المرجع السابق، ص348.

الجزائر (الجهة الشمالية) والمساعد على تكاثر البراغيث المعدية والتي هي المسبب الرئيسي في ظهور الأوبئة وانتشارها¹.

ومن بين المناطق المسببة للأمراض في بايلك الغرب نذكر كثرة المستنقعات والبحيرات المالحة الواقعة بالقرب من وهران، إضافة إلى أن المناطق السهلية المعروفة بالرطوبة كانت مسببة للأمراض ومن بينها الحمى التي كانت تنتشر في فصل الربيع²، كما كان الضباب المنتشر في أماكن المستنقعات عامل مهم في حصول الأمراض،

والعكس من ذلك فقد كانت المناطق الجبلية التي تتميز بنقاء الهواء والخلو من مسببات الأمراض، وهنا نشير إلى أن التضاريس تتحكم إلى حد ما في حركة انتقال الأوبئة فالجبال عكس السهول في هذا الجانب³.

وقد كانت هناك العديد من الأمثلة الدالة على ترابط المناخ وانتشار الوباء حسب كل فصل فكان يظهر الوباء في الشتاء ويبلغ ذروته في الربيع، ثم تنخفض حدته في فصل الصيف مع انخفاض نسبة الرطوبة في الهواء⁴.

¹ يتحدث ابن خلدون في مقدمته عن موضوع تأثير أحوال العمران وطبيعة المناخ في حدوث الأمراض ومدى مناعة المجموعات البشرية ضدها، كما يتحدث عن المجاعات وأنها تؤثر على سكان المناطق المعتدلة والذين تعودوا على رغد العيش عكس سكان المناطق الداخلية الذين تساعدهم خشونة العيش على تحمل قساوة المجاعات والتصدي للأمراض. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ج1، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص ص 109-113.

² يشير حمدان خوجة إلى تأثير المستنقعات والبيئات الرطبة في معرض حديثه عن سهول متيجة التي اعتبرها موطناً للحمى باستمرار بحكم رطوبتها العالية كما انتقد الفرنسيين الذين حاولوا تجفيف التربة واستصلاحها وأكد أن تربة متيجة تختلف كلياً عن السهول الأخرى. ينظر: حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص47.

³ كمال بن صحرأوي، المرجع السابق، ص179.

⁴ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص238.

4-4- الأسواق والقوافل التجارية:

بما أن الأسواق نقطة التقاء هامة بين التجار من جهة وبين التجار والمتسوقين من جهة أخرى فقد كان غالبا ما يسبب الاحتكاك بين هذه الأطراف يسهل من انتشار العدوى، وما يزيد الأمر خطورة هو ذهاب المصابين إلى مواطنهم فرارا من الطاعون مايزيد من اتساع مجال الوباء¹.

إضافة المبادلات التجارية الخارجية التي لعبت دورا كبيرا في نقل الأوبئة خصوصا مع الباب العالي الذي كان يأتي في المرتبة الثانية من حيث التصدير للجزائر بمبادلات قدرت بحوالي 745000 فرنك فرنسي، وما ساعد وفود الأوبئة من اسطنبول خصوصا هو كونها مركزا تجاريا محوريا يربط آسيا بأوروبا وإفريقيا ما يؤهلها لتكون موطنا لاستقبال وتحويل الأوبئة².

وإن كنا لا نجد إشارات صريحة حول التأثير المباشر للسفن التجارية العثمانية الحاملة للأوبئة على الجهة الغربية نذكر مارواه الشريف الزهار حول الوباء الذي اجتاحت الجزائر سنة 1786³ بحيث يقول "... وفي سنة 1201 هـ جاء الوباء إلى الجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم ويسمى بالوباء الكبير، قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية⁴.

أما الإيالة التونسية فقد كانت تربط الجزائر معها علاقات اقتصادية قوية، وبحكم القرب الجغرافي فإنه من السهل جدا انتشارها وهناك العديد من الأمثلة التي سنختار بعضها ففي سنة 1720 ظهر الوباء في تونس ثم لم يلبث أن دخل إلى الإيالة الجزائرية، وكذلك الأمر بالنسبة للوباء الذي ظهر سنة 1741 والذي اشتدت وطأته في الجزائر.

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 245.

² Jean marchika. Op cit. P156.

³ تتوافق سنة 1786 في حلول الوباء سواء في مدينة الجزائر أو في مختلف المناطق وخاصة في بايلك الغرب والذي أشرنا إليه سابقا.

⁴ أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، دار البصائر، الجزائر وزارة الثقافة، 2009، ص 78.

كما هو الشأن بالنسبة للوباء الذي ضرب تونس سنة 1784 لينتقل بعدها مباشرة إلى الجزائر سنة 1785 وقد فشلت الإجراءات الاحترازية التي قام بها صالح باي في بايلك الشرق الجزائري والتي لم تحل دون انتشار الوباء في المنطقة¹.

4-5- موسم الحج:

يعتبر اجتماع المسلمين في موسم الحج من بين العوامل المساعدة على انتشار الأوبئة عن طريق المسلك البري والذي تختلط فيه القوافل المصرية مع القوافل القادمة من بلاد المغرب، إضافة إلى المسلك البحري الذي ينطلق من موانئ اسطنبول وأزمير نحو الموانئ المصرية ومنها إلى المنطقة المغاربية.

ونشير إلى أن ما يهمننا في الحديث عن قوافل الحجاج هو طريق عودتهم فقد كانت مدينة الإسكندرية بمثابة مفترق الطرق للحجاج العائدين فهناك من يفضل العودة بحرا عن طريق السفن المنطلقة من الإسكندرية.

أما الأغلبية فكانوا يسلكون الطريق الساحلي مرورا بالمدن المعروفة كطرابلس وقابس وتونس ومن ثم الدخول إلى الجزائر عن طريق قسنطينة والجزائر وتلمسان ثم المدن المغربية غالبا ما كان الحجاج يبقون مدة في هذه المدن للقيام بالأنشطة الاقتصادية والتي من خلالها ينقلون العدوى إلى هذه المناطق أو يصابون بالعدوى في حالة وجود الوباء في هذه المناطق². وهناك طريق آخر وهو الطريق الجنوبي والذي يعرف بطريق أو "مسلك القصور" والذي يتجه من خلاله الحجاج إلى بسكرة وورقلة والأغواط وبعض الواحات³.

¹ خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 96-97.

² فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 240.

³ يتحدث العديد من الرحالة الذين وصفوا خط سيرهم إلى البقاع المقدسة مثل الرحالة التيمقوتي والباشي صاحب الرحلة المشهورة بماء الموائد والذي سلك في طريقه إلى الحج الطريق الجنوبي...، للمزيد من التفاصيل ينظر: مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 27-23.

ومن بين الأمثلة على دور الحجاج في نقل الوباء ما ذكره مار شيكا "marchika" عن وباء 1752 والذي حسبه كان بسبب السفن المحملة بالحجاج والناقلة للعدوى¹، كما تمت الإشارة إلى وباء 1785 بقسنطينة والذي كان سببه انتقال العدوى من تونس عن طريق سفينة حجاج قادمة من الإسكندرية.²

كما نقف على مثال آخر وهو انتشار الوباء بمدينة عنابة خلال سنة 1817 عن طريق سفينة حجاج كان أغلبهم مصابا بالطاعون لينتقل إلى بقية سكان المدينة.³ وبالنسبة لبابلك الغرب نذكر مثالا عن انتقال الوباء عن طريق السفينة القادمة من ميناء الإسكندرية إلى وهران في مارس 1799 والتي كانت تحمل 14 حاجا وأثناء وصولها توفي أحد الحجاج ليتبين نقل هذه السفينة للطاعون والذي انتشر إلى المدن المجاورة محدثا خسائر بشرية معتبرة.⁴

ما يهمنا في ذكر هذه الأمثلة هو أن الحركية المستمرة بين موانئ المشرق الإسلامي وخاصة السفن القادمة من الإسكندرية أدت إلى نشر الوباء في الإيالة الجزائرية عموما وبخاصة في بابلك الغرب عن طريق ميناء وهران الذي كان يشهد حركية نشيطة سواء في انتقال الأفراد والبضائع، وكنتيجة حتمية فإن الاحتكاك المباشر في الموانئ من دون شك هو أهم الأسباب الناقلة للأوبئة، وكذلك الشأن بالنسبة للموانئ الأوروبية وخاصة الفرنسية منها والتي لم تكن صحية في العديد من المرات.⁵

¹Jean marchika Op cit. P97.

²L.valensi ;op,cit ,p.

³J-guyon.op cit.p372.

⁴Jean marchika. Op cit .p150.

⁵ لا نستبعد دور موانئ أوروبا في إمكانية نقل الوباء إلى الجزائر فعلى سبيل المثال شهدت مدينة مرسيليا المطلة على البحر المتوسط طاعونا رهيبا خلال أكتوبر سنة 1720م، حيث بلغ الوباء ذروته شهر أوت والذي كان يموت فيه خلال اليوم أكثر من حوالي 1000 ضحية في اليوم، وبعد هذه الفترة شهدت الجزائر انتشار عظيم للوباء. ينظر:

j.i.g. guyon,op cit,p309

4-6- الملابس والأغطية:

لقد كانت الملابس والأغطية من الوسائل المباشرة الناقلة لعدوى الطاعون، وقد كانت طريقة انتقال الوباء عن طريق استخدام الألبسة والأغطية والفراش عن طريق البراغيث المعدية الملتصقة بها.

وقد كانت غالبا ما تستعمل دون تطهير بالرغم من أن هذه الألبسة هي لأشخاص ماتوا نتيجة الطاعون فتبقى هذه البراغيث حية، وقد كانت حاجة السكان لهذه الألبسة أمرا محتملا لعدم تمكنهم من شراء الألبسة الجديدة.

وقد لعب اليهود دورا خطيرا في هذا الأمر فهم من كانوا يتحكمون في تجارة الرثا التي كانوا يجنون منها أرباحا كبيرة رغم خطورتها¹، ومن هنا يتبين لنا خطورة التغلغل اليهودي في المجتمع الجزائري فهم أصل الكثير من الأزمات والشرور للأمة الجزائرية وسيأتي بيان ذلك في توضيح ممارساتهم أيضا في حصول المجاعات بحكم امتيازاتهم وسيطرتهم على التجارة الخارجية.

4-7- الحملات العسكرية:

شكلت الفرق العسكرية أحد العوامل المساعدة في نقل الأوبئة فقد كانت تنتقل إلى مختلف المناطق سواء لفرض النظام أو لإخضاع القبائل المختلفة أو لجمع الضرائب بشتى أنواعها، وكنا لا نجد مثالا واضحا عن بابلوك الغرب نكتفي بالإشارة لبابلوك الشرق فقد نشرت الفرق العسكرية الطاعون الخطير بجنوب البابلوك خلال سنة 1786.

كما لاننسى عوامل أخرى من المحتمل أنها كانت تنشر العدوى كالمراسلات الدبلوماسية وما قد تسببه الرسائل المغلفة بالأقمشة المختلفة وما تحتويه من عطور في نقل العدوى².

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 247.

² نفسه، 246.

5- خصائص الأوبئة وانتشارها:

بحكم تركيزنا على وباء الطاعون فلا بد من التعرض أولا للخصائص السريرية لهذا الوباء ومن ثم الانتقال إلى الخصائص الأخرى:

5-1 الخصائص السريرية لوباء طاعون:

تظهر الأعراض السريرية للطاعون للأشخاص بأشكال مختلفة تتمثل في ارتفاع درجة الحرارة وتدهور شديد في الحالة الصحية وكما ذكرنا سابقا في فهناك ثلاثة أنواع من الطاعون كما أشرنا في

سابقا ومن بينها الطاعون الدملي "peste bubonique" أو ما يصطلح عليه أيضا الخراجي وهو الأكثر انتشارا في الجزائر العثمانية بحيث يفوق عدد الحالات المصابة به 90% من الحالات¹.

تتمثل أعراض النوع الدملي في ظهور خراج (bubon) وهي دملة حمراء منتفخة والتهابية تتركز تحت الإبط وفي ثنايا الفخذ وفي الرقبة أو وراء الأذن ...، وعموما فإن المصاب بهذا النوع يموت بعد أربعة أيام بعد صراعه مع الألم الشديد².

بعد عرض الخاصية العلمية للطاعون نعرّج على طرق وسنوات انتشاره كالآتي:

5-2 طرق وخصائص انتشار الطاعون:

- حسب العديد من الباحثين فقد كان وباء الطاعون وافدا ولم تكن الجزائر مصدرا للوباء بل كان مصدره الشرق وقد ساهمت حركة السكان عاملا حاسما في انتشار الأوبئة وخاصة موسم الحج، وبالتحديد عن طريق الموانئ الجزائرية³.

- تميزت الأوبئة منذ الوجود العثماني وإلى غاية نهايته بخصائص متشابهة وأحيانا متباينة فخلال القرن السادس عشر وابتداءً من سنة 1542 تميزت الأوبئة بطابعها التكراري ما جعل البيئة

¹ مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص22.

² فلة القشاعي، المرجع السابق، ص221.

³ عائشة غطاس، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة، ع1983، 76، ص 124.

الجزائرية مستوطنة للطاعون، وقد شهد انتشار الطاعون تباطؤا ملحوظا¹ بحكم نقص وسوء المواصلات عكس القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث شهدت البلاد تحسنا في طرق المواصلات وقد قدرت مسافة انتقال الوباء بحوالي 200 كلم تقريبا.

- أما خلال القرن السابع عشر فتميز بتواتر الطاعون التكراري فقد كانت سنوات تكرار الوباء ما يقارب 70 سنة معدية، وقد طغت خلال هذه الفترة الأوبئة الطاعونية الخراجية، وقد عم هذا النوع باقي الأقطار المغاربية بحيث كان من خصائص هذه الأوبئة بطابعها القاري².
- بالنسبة للقرن الثامن وهو الفترة الهامة المعنية بالدراسة والتي تشابهت الأوبئة خلالها بخاصيتها التكرارية لكن ما زاد من حدة الأوبئة ظهور المجاعات، وهو ما خلف تبعات وآثار قاسية على المجتمع الجزائري³، وكذلك الأمر بالنسبة للسنوات الثلاثون الأولى من القرن التاسع عشر التي شهدت نسبة أكبر من الطاعون فقد عرفت سنة 1818 منطقة شمال إفريقيا أكثر الأوبئة قساوة في هذا القرن⁴، وقد تأثرت الجزائر عموما وبايلك الغرب كثيرا بهذا الوباء خصوصا من الناحية الديموغرافية⁵.

- تميزت فترات انتشار وباء الطاعون بالظهور بصفة تكرارية خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر كل 7 أو 8 سنوات، كما كان ساهم في حدوثها وتأثيرها ظهور المجاعات الشديدة

¹ من بين الأمثلة الدالة على تباطؤ انتشار الطاعون مذكره جين مارشيك "marchika" فيما تعلق بالطاعون المنتشر سنة بالجزائر 1552 والذي حالت دون انتشاره السريع رداءة المواصلات كما ذكرنا حيث وصل إلى وهران بعد سنتين إذ وصل سنة 1554. ينظر: Jean marchika. Op cit. P26.

² فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 231.

³ نفسه، ص 234.

⁴ Jean marchika .op cit .p167.

⁵ حمدادو بن عمر، ظاهرة الأوبئة والأمراض بالجزائر من خلال كتاب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين لأبي حامد المشرفي"، مجلة عصور، ع37، أكتوبر-ديسمبر، 2017، ص 243.

بسبب الجفاف وتقلص المردود الفلاحي¹، لذلك فإن تزامن المجاعات والأوبئة كما أشرنا سابقا جعل المجتمع يعاني من تبعات وآثار قاسية على مختلف الجوانب الحياتية.

أ- ومن حيث التوزيع الجغرافي للأوبئة الطاعونية فقد كانت حصة الجهة الغربية لا تتعدى 15% عكس مدينة الجزائر وما جاورها والتي كانت حصتها 54%، أما بايلك الشرق فقد كانت نسبته 26%².

في ختام الحديث عن الأوبئة وخصائصها وكيفية انتشارها لابد من توضيح وجهة نظرنا حول نقطتين أساسيتين بخصوص الأوبئة التي شهدتها الجزائر من خلال استقراء بعض المصادر الأوروبية والدراسات الأكاديمية الجزائرية نجد أن الباحثين الجزائريين يعتبرون أن الأوبئة دائما ما كان مصدرها المشرق الإسلامي معتمدين في ذلك على روايات الأوروبيين وخاصة الفرنسيين، الذين دائما ما يتهمون بلاد المشرق وخاصة الموانئ العثمانية بأنها مصدر الأمراض والذي قد تغطي عليه ذاتيتهم المتمثلة في تبرئة العنصر الأوربي من أية مساهمة في نقل الأمراض إلى الجزائر .

لذلك يجب التعاطي مع معلوماتهم حول مصدر الأوبئة بحذر فهم في كثير من الأحيان يقرون بدور السفن الأوروبية في نقل الوباء إلى الجزائر³، كما أن المعطيات التاريخية تثبت بأن البيئات الأوروبية وخاصة المتوسطية منها ليست صحية دائما⁴.

فقد ظهرت الكثير من الأوبئة عبر العصور كالطاعون الأسود(الطاعون الدبلي) وغيره...، وقد كان آخر الأوبئة الأوروبية خطورة الأنفلونزا الإسبانية خلال سنة 1918 التي خلفت أكثر من 50 مليون قتيل وهو رقم يفوق حتى عدد وفيات الحرب العالمية الأولى(1914-1918).

¹ محمد الزين، (2012)، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 17، ص 132.

² ناصر الدين سعيديوني، النظام المالي...، المرجع السابق، ص 42.

³ J –guyon.Op cit.p298.

⁴ Ibid,p309.

6-أسباب حصول المجاعات:

تتطلب دراسة الأزمات الغذائية التطرق إلى المسببات المباشرة وغير المباشرة لها، وبالنسبة للأسباب المباشرة تعد الظروف الطبيعية التي يعيشها المجتمع من مناخ وتضاريس إضافة إلى الكوارث الطبيعية ونعتمد على المعلومات الواردة في المصادر المحلية وهي كالآتي:

6-1-حصول القحط وانتشار الجراد:

من الآفات الطبيعية التي أضرت بالجزائر وكانت لها آثار وخيمة على حياة السكان خصوصا مع الموجات المتكررة للجراد، وما يميز الجراد هو سرعة الانتشار والتكاثر فكل جرادة تبيض ما بين 80 و100 بيضة عند حلولها بمنطقة ما قبل مغادرتها، كما أن أسراب الجراد تلتهم المحاصيل الزراعية وبالتالي تقلص الإنتاج الزراعي¹.

وهناك علاقة سببية بين الجفاف وانتشار الجراد فقد ساعد على ظهور الجراد الظروف المناخية الملائمة والتي تأثرت بالمناخ الصحراوي في الجنوب وتأثيره على مناطق الهضاب العليا والمناطق التلية وقد كانت أسراب الجراد تظهر كل أربع أو خمس سنوات وتكون محدودة التأثير، لكن مع اشتداد الجفاف لمدة طويلة وهطول الأمطار بعد مدة متأخرة يؤدي إلى اجتياح الجراد الشديد والذي لايمكن مقاومته فيأتي على المحاصيل الزراعية فيدمرها².

من بين الإشارات المتعلقة بحصول القحط ما وقع سنة 1777مما ذكره المزارى في ترجمته للباي خليل وما وقع في فترة حكمه بقوله "وفي وقت الباي خليل حل بالناس قحط عظيم ودام إلى نصف إحدى وتسعين فرال بإذن الله³"، والأكيد أن حصول القحط يؤدي إلى انحصار الإنتاج الزراعي وبالتالي حصول المجاعة.

¹ صليحة علامة، الوضع الصحي في مقاطعة الجزائر 1830-1930، دار القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص43.

² ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ط2، ص101.

³ بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص289.

وبالنسبة لانتشار الجراد يشير العديد من المؤلفين إلى أن الوباء في عديد الحالات كان مسبقا بموجات من الجراد وعن تأثيراته نذكر بعض الأمثلة منها ما أشار إليهم محمد بن يوسف الزياني إلى أنه خلال فتره حكم عثمان بن محمد الكبير في الفترة ما بين (1798-1801) حدث طاعون عظيم مات على إثره الكثير من العامة والعلماء والأعيان.

وقد أشار الزياني الى ذلك بقوله "...وظهر الجراد الكثير فأفسد الزرع والثمار فسادا عظيما¹". ولا شك أن انتشار الطاعون وتزامن مع غزو الجراد للمحاصيل الزراعية يسبب أزمة اقتصادية ونزيف ديموغرافي خطير.

وبما أن موجات الجراد تكرر انتشارها، ففي سنة 1813 وخلال فترة حكم الباي علي قارة بأغلي² يذكر محمد بن يوسف الزياني صاحب دليل الحيران أن الجراد انتشر بصورة رهيبة على حد وصفه "وحدث في وقته جراد منتشر غير معهود، أفسد الزروع والثمار. وعم بالشرق والغرب سائر النواحي والأقطار، ولم يخلو منه مكان إلا مدينة وهران..."، ولا شك أنه أثر سلبا على المنتوجات الفلاحية خلال هذه السنة³.

ونجد إشارة إلى وقوع القحط وغلاء الأسعار يذكرها المزارعي مع نهاية العهد العثماني وبالتحديد سنة 1827 والتي لا شك أنها تسببت في مجاعة كبيرة دفعت برجال لسلطة العثمانية إلى تقسيم الغداء على السكان وسميت عند العامة بعام "خبز الباشا"⁴

6-2- تدهور الوضع الأمني:

لا شك أن استقرار الوضع الأمني في أي جهة من الجهات عاملاً أساساً في تنشيط الإنتاج الزراعي وتحقيق الازدهار الاقتصادي غير أن الوضعية الأمنية الصعبة في بايلك الغرب

¹ محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص272.

² الباي علي المعروف بقارة بأغلي نسبة إلى إحدى بلاد الترك جاء إلى الجزائر خلال فترة حكم الباي محمد الكبير وكان مشهورا بالحلم وحسن التدبير تولى الحكم خلال سنة 1813 وخلال فترة حكمه ساد الأمن والاستقرار في البايك وخدمت فتنة الدرقاويين، ثم تم عزله من منصبه وقتل خلال سنة 1817. ينظر: بن عودة المزارعي، المصدر السابق، ص340.

³ محمد بن يوسف الزياني، المصدر نفسه، ص305.

⁴ بن عودة المزارعي، المصدر نفسه، ص361.

الجزائري في فترات زمنية مختلفة أدت إلى تقهقر الإنتاج الزراعي وحصول أزمات غذائية كبرى في المنطقة.

من بين المظاهر الدالة على تدهور الوضع الأمني فتنة الدرقاويين في بايلك الغرب الجزائري¹.

فقد ثار عبد القادر بن الشريف الدرقاوي والذي حرّض الناس على الثورة ضد العثمانيين بعد حصوله على إذن من شيخه بالمغرب الأقصى، وقد اجتمعت حوله الكثير من القبائل، وعند سماع الباي مصطفى جهز له جيشا كبيرا والتقى بفرطاسة وكان من نتائج المعركة هزيمة الباي وتراجعته إلى مدينة وهران 1805. وقد مات في هذه المعركة الكثير من الأعيان كابن هطال².

ثم سيطر الدرقاوي وأعوانه على معسكر وماجاورها، وتذكر المصادر أن الدرقاوي لما أراد الهجوم على الباي أحدث جنوده الخراب الذي أحدثه كلما مر بمنطقة من المناطق من قتل وتدمير، وما يهمنها هو الثروة الفلاحية من هذه الفتنة فيذكر صاحب دليل الحيران ذلك بقوله " وكان قدومه لوهران في إبان الحصاد اليه وإطاعته. جميع العياب لآعربي ولا شريف القدر ولا دني مخافة على زرعهم وضرعهم وقد سلط على مزارع المخزن أتباعه في بضاعته فحرقوا فنهبوا وقتلوا وأسروا³.

وقد أشار العنتري إلى المجاعة التي ضربت قسنطينة والتي كانت أيضا بسبب ثورة ابن الأحرش الدرقاوي⁴. وما أحدثه من فوضى أدت إلى انعدام الحراثة ونذرة الجنوب، وقد وصفها

¹Walsin esterhazy.op.cit.p206

² أحمد ابن هطال التلمساني: هو ابو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن هطال التلمساني: كان كاتباً ومستشاراً لمعهد الكبير باي الايالة الوهرانية وقد كان مبعوثاً للباي في المهمات الخارجية، وبقي في منصبه بعد وفاة الباي محمد الكبير وقد استشهد ابن هطال في معركة فرطاسة الشهيرة بين العثمانيين والدرقاويين.

³محمد بن يوسف الزياتي، المصدر السابق، ص275.

⁴محمد بن صالح العنتري، سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة، منشور تحت عنوان مجاعات قسنطينة، تح وتقر: رابح بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص29.

سببها بدقة في قوله " واتضح أن سبب دوام القحط والشر على بلاد قسنطينة ووطنها مدة ثلاثة أعوام مركب من أمرين: أحدهما نزول الجائحة والقحط في السنة الأولى. وبقي السنين التي بعدها والثاني: وهو أعظمها ترادف الافتتان والأهوال التي لم تطمئن نفوس الناس للحرارة"¹.

6-3- ملكية الأراضي:

لقد منحت السلطات العثمانية لقبائل المخزن الكثير من الامتيازات كالإعفاء من الضرائب الإضافية ما عدا الزكاة والعشور²، وقد منحت لهم أخصب الأراضي المتواجدة بالقرب من مازونة ووهران وغيرها وهذا ما جعل لها نفوذا واسعا ومكانة مرموقة بين الجماعات القبلية الأخرى.

وبعد تمكن القبائل المخزنية من الحصول على ملكية الأرض مارست هذه القبائل نوعا من الإقطاعية، وعلى سبيل المثال استحوذت رجال المخزن على 78% من السهول الوهرانية، ورغم هذه المساحات الشاسعة إلا أنها لم تستغل وظلت مهمة³.

والأكيد أن هذه الهيمنة على الأراضي الخصبة أثر سلبا على النشاط الزراعي مما كان عائقا أمام تطور الإنتاج الفلاحي وهو حتما سيؤدي إلى ندرة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها وانتشار الجوع بين الناس.

6-4- مساهمة اليهود في انتشار المجاعة:

من الأمور المتعارف عليها تاريخيا هو أن اليهود كانوا دائما وراء الكثير من الفتن والأزمات التي حلت بالمجتمعات، وقد برز دورهم الخطير في الجزائر خلال العهد العثماني مع سيطرتهم على التجارة الداخلية والخارجية.

¹ محمد بن صالح العنتري المصدر السابق، ص 39.

² Walsin esterhazy. op cit.p267.

³ ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 509.

وكما أسلفنا الذكر حول تجارتهم للتراث (الملابس المستعملة) هذه التجارة المربحة والخطيرة في نفس الوقت والتي كانت من العوامل الناقلة للأوبئة القاتلة¹، ظهر جليا مساهمتهم في تأزم الوضع المعيشي من خلال المجاعات وغلاء الأسعار والممارسات التجارية الغير أخلاقية، وقبل التطرق مباشرة إلى تأثير اليهود على الوضع المعيشي لابد من التطرق إلى وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية وعلاقتهم بالسلطة العثمانية.

6-4-1 النفوذ اليهودي داخليا:

تميز التواجد اليهودي بالجزائر بالقوة والتأثير فقد تركزت هذه الطائفة بأهم المدن ومارست الصناعة المربحة كالصياغة والصرافة وكذا صك العملة، وقد ساعد على التغلغل اليهودي الاطلاع على أسرار الدولة من خلال تقلد مناصب هامة خولت لهم بلوغ مراكز التأثير السياسي والتقرب من حكام الجزائر².

وقد استطاع اليهود التحكم في الاقتصاد الجزائري داخليا تحت حماية السلطة العثمانية، ونشير إلى بعض مظاهر هذا التغلغل مع نهاية القرن الثامن عشر³ وإلى غاية الاحتلال الفرنسي كما يلي:

- تأسيس الشركات والمحلات الكبرى والاستحواذ على الأسواق ونشر المعاملات الربوية المحرمة في أوساط المجتمع.
- التحكم في الشؤون المالية:

¹قفة القشاعي، المرجع السابق، ص125.

² اسعيد عليوان، دور الجالية اليهودية في استعمار فرنسا للجزائر 1830م، المعيار، ع 24، ص422.

³ تزايد نفوذ اليهود في بابل في الغرب بعد التحرير النهائي لوهراة فقد قام الباى محمد الكبير بتشجيع الطائفة اليهودية على السكن في وهران ومنح التسهيلات في مختلف المجالات، كما استقطب اليهود المقيمين بتلمسان ومعسكر وندرومة ومستغانم ومنح لهم بعض الأراضي، وقد استقر اليهود في مدينة وهران بين البرج الجديد وبرج الصباحية. ينظر: بومدين دباب، المرجع سابق، ص138

الفصل الثاني: التطور الكرونولوجي للأوبئة والمجاعات وأسباب حدوثها

- من خلال السيطرة على خزناسي الداي مصطفى باشا والذي انتقم من السكان الذين ثاروا بعد قتل التاجر اليهودي بوشناق سنة 1804¹، وقد كان الخزناسي بمثابة وزير المالية ما يسهل على اليهود السيطرة المطلقة على أموال الجزائر.
- هيمنة اليهود على صك العملة بدار السكة وقد تم اختار بعض اليهود لصكها تحت إشراف أمين السكة ما يخول لهم التحكم في المعاملات النقدية

الوساطة بين الحكومة والكراغلة لدفع مرتباتهم، وقد استغل اليهود ذلك بعد الأزمة بين الكراغلة والحكام بعد محاولة الانقلاب الفاشلة سنة 1630م².

6-4-2- السيطرة على التجارة الخارجية:

تتمثل السيطرة اليهودية على التجارة الخارجية في العديد من الصور والمظاهر الدالة على التغلغل الخطير لهذه الفئة وأهم مظهر من مظاهر النفوذ اليهودي وصول اليهود إلى مراكز القرار فقد سيطر اليهود على النشاط الاقتصادي داخليا وخارجيا. وبالنسبة للمبادلات الخارجية فقد سيطروا على التجارة مع المدن الأوروبية المشهورة وسنيين من خلال الجدول التالي نموذج حول سيطرة التجار اليهود على التجارة الخارجية بين وهران والتي هي من أهم مدن بايلكالغرب وعاصمته بعد تحريرها من الاحتلال الاسباني سنة 1792م مع بعض المدن الأوروبية³:

التاجر	مكان النشاط	السنوات
سلمون أبو قير	وهران-ليفورنه-مرسيليا	1823-1792
جودا بن سرية	وهران-مرسيليا	1819-1792

¹ قضية اغتيال بوشناق سنة 1804 تحدث عنها الزهار. ينظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص87.

² اسعيد عليوان، المرجع السابق، 424.

³Isaac bloch.opcit .p p88-90

1823-1792	وهران-ليفورنه	يوسف كابيزا
1820-1792	وهران -ليفورنه-مرسيليا	توبيان
1823-1792	وهران-ليفورنه	داود ليفي بلنسي
1823-1817	وهران-ليفورنه	صامويل حسن
1826-1792	وهران-ليفورنه	باروش الأصغر
1823 - 1792	وهران-ليفورنه	بن هاس-بن دهان
1823 - 1792	وهران-مرسيليا-ليفورنه	يعقوب بن زقان

جدول يمثل أسماء التجار اليهود ونشاطهم بين وهران وبعض المدن الأوروبية¹.

من خلال المعطيات الواردة في الجدول نبدي بعض الملاحظات هي كالاتي:

- حيوية النشاط التجاري بين مدينتي وهران وليفورنه (مدينة إيطالية) والتي أخذت الحجم الأكبر.
- تعود أهمية العلاقات التجارية القائمة مع ليفورنه إلى دور العائلات اليهودية التي هاجرت إلى الجزائر خلال القرن 17، وقد توسعت هجرتهم بعد التسهيلات والامتيازات التي منحت لهم، إضافة إلى علاقاتهم بيهود الجزائر ما أتاح لهم بتسويق البضائع التي يصعب بيعها أو تصريفها في الموانئ الأوروبية.

وقد أسست هذه العائلات شبكة تجارية يهودية بفعل الشركات والوكالات التي سمحت بالسيطرة على التجارة الخارجية، وقد ساهم في احتكار اليهود للتجارة الخارجية رجال السلطة العثمانية

¹ بومدين دباب، المرجع السابق، ص139.

والقناصل الأوروبيين، كل هذه العوامل جعلت العلاقات التجارية بين الجزائر وليفورنة تحتل المرتبة الثانية بعد مارسيليا¹.

6-4-3- احتكار اليهود لتجارة الحبوب:

إن تجارة القمح كانت تسيطر عليها الشركات الفرنسية الخاضعة للقانون الفرنسي والتجار اليهود وقد ساهم في هذه الهيمنة التسهيلات التي منحها رجال السلطة مثل الداي حسن باشا ومصطفى باشا لهم، وقد تسبب استمرار التصدير في تطورات خطيرة زعزعت استقرار الجزائر فقد تم اغتيال ستة دايات بسبب هذا الأمر كما توترت العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد رفض هذه الأخيرة تسديد ديونها².

ويعتبر احتكار اليهود لتصدير الحبوب سببا غير مباشر لحصول المجاعات أو في بقائها مدة زمنية طويلة، وسنذكر بعض الأمثلة الواضحة لتأثير عمليات التصدير التي كان يقوم بها المضاربين اليهود من خلال جمع الحبوب من السوق الداخلية وتصديره إلى أوروبا ولو على حساب السكان.

لقد تزامنت في الكثير من المرات عمليات التصدير في بايلك الغرب الجزائري مع وجود أزمات خانقة كالجفاف والمجاعات مثل ما حصل خلال سنوات 1796 و1797، وكذلك ما قامت به شركة بكري وبوشناق من تصدير القمح لليفورنه ومارسيليا سنة 1805

¹ رحمونة بليل، سيطرة اليهود على التجارة الجزائرية الليفورنية خلال القرن الثامن عشر، عصور الجديدة، ع 10، جويلية، 2013، صص 207-208.

² مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، صص 213-214.

بينما كانت السوق الداخلية في أمس الحاجة إليه في ظل حصول مجاعة شديدة ضربت الجزائر¹.

وفي بايلك الغرب قد اغتنمت هذه الشركات، والتجار اليهود هذه الاتفاقيات في تصدير كميات ضخمة من الحبوب ما أدى إلى اضطراب السوق الداخلية، فمثلا في سنة 1793 شهد ميناء وهران تحميل أكثر من 100 سفينة ب 75 000 قنطار من القمح و 6000 قنطار من الشعير².

لقد ساهم الاحتكار اليهودي في تحصيل ثروات طائلة للمضاربين والشركات التجارية على حساب كدح المزارعين البسطاء، فلم يكن يهمهم سوى الأرباح التي يجنونها من عمليات البيع وقد كانوا دائما ما يتحينون فرص وفرة الحبوب ونقص قيمتها لشراء أكبر قدر ممكن منها وتصديرها وفي حالة نقص المواد الغذائية في الأسواق فإنهم يرفعون سعرها لتحقيق هامش الربح المرتفع.

وهو ما جعل السكان يثيرون عليهم سنة 1805 للتخلص من نفوذهم المالي والسياسي وهذا دليل على إدراك المجتمع الجزائري لمساهمة اليهود في حصول المجاعات من جهة وخطورة سيطرتهم على الحياة الاقتصادية في الإيالة الجزائرية³.

7- استنتاج عام حول المجاعات :

من خلال استعراض التطور الكرونولوجي للمجاعات نقف أمام إشكالية تتمثل في الأسباب الرئيسية لحصول المجاعات.

¹ خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 111.

² مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص 213.

³ خير الدين سعيدي، المرجع نفسه، ص ص 110-112.

فالكثير من المصادر تذكر أن أراضي بايلك الغرب كانت مصدرا أساسيا للقمح الممول لأوروبا ففي أرجوزة أبي راس الناصر في مدح الباي محمد الكبير يقول "والناس بتلك الأرض بأخصب العيش وأطيبه وأرغده وأعذبه، فكثرت عندهم الخيرات وتمت لهم البركات¹ " وما يدعم هذا القول هو إشادة الرحالة الألماني "هابنسترايت" بخصوبة الأرض في سهول الشمال كسهل متيجة وسهول الجهة الغربية وصلاحياتها لإنتاج القمح، إلى حد التصدير إلى البلدان الأوروبية مثل ما ذكرناه سابقا².

لكن الأطراف المستفيدة من وفرة هذه المادة هم رجال السلطة العثمانية والرابح الأكبر هم التجار الأجانب الذين نمت لديهم ثروة طائلة جراء هذه المبادلات على حد وصف الرحالة بقوله "وعرب بايلك وهرانيزودون مخازن الداي بهذا المنتج ليقوم هو ببيعه للأجانب الذين أصبحوا بفعل هذه المبادلات من كبار التجار بفرنسا واسبانيا وجبل طارق³".

بعد البحث عن أسباب حصول المجاعات نرى أن التسويق العشوائي للمنتجات الأساسية (القمح والشعير) أحدث خلا في توفر هذه المادة التي كانت تصدر بكميات كبيرة إلى أوروبا، والمؤكد أن عملية التصدير عامل أساسي في اختلال التوازن ولتوضيح وجهة النظر هذه لا بد من تدعيمها بمثال في نفس فترة الدراسة وهو ما وقع بالمغرب الأقصى.

يؤكد الباحث المغربي الأمين البزاز أن جذور الأزمة الغذائية لسنة 1775 بالمغرب الأقصى عملية التصدير الرسمية التي بدأت منذ 1766 والتي شهدت حركة تصدير واسعة نحو كل من البرتغال واسبانيا وفرنسا فخلال سنة 1774 تم تصدير 100.000 قنطار من القمح والذي يعتبر مجازفة غير محسوبة العواقب في ظل عدم انتظام تهاتل الأمطار الذي يعتمد عليه الفلاحون في كل سنة.

¹ خير الدين سعيد، المرجع السابق، ص 137.

² من خلال استقراءنا للمعطيات التاريخية نرى أن الأزمة لم تكن أزمة عدم صلاحية الأرض للإنتاج بقدر ما هي أزمة في التسيير والتخزين والتسويق الغير المتوازن للحبوب.

³ رحلة العالم الألماني: ج. أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، تر وتو: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د ت، ط 50.

وقد ساهم التصدير في توفير ظروف المجاعة إضافة إلى الجفاف وانتشار الجراد ما تسبب في مجاعة كبرى بالمغرب بداية من سنة 1776م¹

ومن خلال ماسبق ذكره يتبين لنا أن المجاعات والأوبئة في بايلك الغرب كانت بفعل عوامل طبيعية وأخرى بشرية وقد تميّزت بخاصية التعاقب والتزامن خصوصا مع نهاية القرن الثامن عشر، كما تعدت آثارها المدمرة لتشمل مختلف الجوانب الحياتية للمجتمع الجزائري، لذلك سنحاول عرض الحلول التي استخدمتها السلطة العثمانية والمجتمع في مواجهة هذه الأزمات.

¹ محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، ص70.

الفصل الثالث:

السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات

- 1-وضعية الطب ومتعلقاته خلال العهد العثماني:
- 2-دور السلطة والمجتمع في التصدي للأوبئة والمجاعات:
- 3-أشهر الأطباء في بايلك الغرب:
- 3-أشهر الأطباء في بايلك الغرب:
- 4-الأوضاع الصحيّة والمعيشية في المؤلفات المحليّة والأجنبيّة:

من المعروف أنّ الأزمات الصحيّة وكذا المعيشيّة دائماً ما تبين مدى تفاعل المجتمع والسلطة الحاكمة مع الأزمات والكوارث من خلال السلوكيات الاجتماعية المختلفة والمنطلقة من خلفيات ثقافية متعددة والمرتكزة أساساً على المعتقدات الراسخة في ذهنية السكان. وإضافة إلى ذلك يتجسد تفاعل السلطة من خلال جملة من الإجراءات والتدابير الإدارية المتّبعة من طرفها للتخفيف من وطأة الأزمات، لذلك لابد من تسليط الضوء على دور كلا الطرفين في زمن الأزمات، وقبل ذلك لابد من إعطاء لمحة حول المنظومة الصحيّة خلال هذه الفترة:

1-وضعية الطب ومتعلقاته خلال العهد العثماني:

سنحاول في هذا السياق إعطاء لمحة حول الممارسات الطبية في الإيالة الجزائرية وأنواعها من خلال ما يلي:

1-1 الممارسات الطبية في العهد العثماني:

إنّ العناية بالعلوم الطبيّة في الجزائر وبايالك الغرب خلال العهد العثماني لم تكن ترقى إلى المستوى المطلوب¹، وذلك لاشتغال العلماء بالعلوم الشرعيّة والأدب والتاريخ وعلم التصوّف، وإهمالهم للعلوم الطبيّة والفلك والحساب وغيرها من العلوم العقلية².

أما من حيث امتحان الطب خلال العهد العثماني في الجزائر كان هناك ثلاثة أصناف من الممارسة الطبية: طب عثماني وكان مخصص لأغراض عسكرية، وطب شعبي كان مخصص لعلاج السكان، وطب أوروبي من أجل علاج الأسرى.

¹ بالرغم من ذلك نشير إلى أن العلوم الطبية كانت تعرف نشاطاً مقبولاً قبيل فترة الوجود العثماني فقد كانت العديد من الحواضر تدرس مختلف العلوم العقلية كالحساب والفلك والطب وغيرها في بايالك الغرب يشير الحسن الوزان أنمدينة تلمسان مع بداية القرن السادس عشر كانت مدارسها تدرس مختلف العلوم وتشهد إقبالا كبيرا من طلبة العلم وذكر تخصص بعضا المدارس بدريس الطب ... ينظر:الحسن الوزان، وصف افريقيا،تر:محمد حجي ومحمد الأخضر،ج2،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1983،ط2،،ص21.

² خلال العهد العثماني عموماً فإنّ الجزائر لم يكن بها أطباء بارزون كما كان هناك فقهاء ومتصوّفة بارزون وهو الجوّ الثقافي الذي طبع بايالك الغرب الجزائري. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص111.

الفصل الثالث: السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات

أما من حيث الانتشار فقد كان الطب الشعبي ينتشر في الأرياف، كما كانت تمارسه بعض الفئات الاجتماعية في المدن، بينما انتشر كل من الطب العثماني والطب الأوروبي في المدن التي تقيم فيها هذه الفئات¹.

وقد سمحت السلطات الجزائرية في تلك الفترة بفتح مستشفيات في السجون المركزية مسيرة في بعض المرات من طرف بعثات تأتي لهذا الغرض لفائدة السجناء، وقد تم إنشاء أغلب هذه المستشفيات بالقرب من دور العبادة التي كانت موجودة بدورها داخل السجون². وفي الحالات الاستثنائية في تلك الفترة، فقد كان تمويل المستشفيات يغطي بواسطة الرسوم الخاصة.

يشير أبو القاسم سعد الله أن الكثير من الأسماء التصقت بمهنة الطب (متطبيبون) ومنهم من قام بالتأليف فيه كإبراهيم بن أحمد الثغري الذي ألف معجما صغيرا في الطب ومحمد بن يوسف السنوسي الذي ألف كتابا صغيرا في الطب ربط فيه بين الطب والشرع الإسلامي معتمدا على مجموعة من الأحاديث التي تتناول الجانب الطبي وقد ميز هذا الكتاب أنه يذكر الأمراض ويشرح الأحاديث ويصف العلاج المناسب لها³.

وما يؤكد وضعية الطب المتدهورة هو وصف بعض الرحالة والمؤرخين الأوروبيين الذين زاروا الجزائر.

بالنسبة للآراء السلبية الأوربية والملاحظات حول وضعية الطب يرى القنصل الأمريكي وليامشالر "shaler william" القنصل الأمريكي بالجزائر أنه لا يوجد داعي للحديث عن وضعية العلوم بالجزائر بقوله "...غير موجودة، ومتى كانت موجودة فهي محتقرة، بل إن الطب نفسه لا يوجد من يدعيه"⁴.

¹ عثمان بوحجرة، المرجع السابق، ص 21.

² مصطفى خياطي، الطب والأطباء، المرجع السابق، ص 83 .

³ نفسه، صص 111-113.

⁴ وليام شالر، مذكرات وليام شالر (قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824)، تق وتر: إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص 81.

كما يرى الطبيب الرحالة الألماني "هابنسترايت" "hapenstrait" أن السكان كانوا يظنون أن دواء واحدا يكفي لعلاج مختلف الأمراض بقوله "مادمت لا أستطيع أن أقنع هؤلاء الناس بأن كل مرض من الأمراض يتطلب دواءا خاصا، فهم يعتقدون بأن دواء واحدا كفيلا أن يشفي كل الحالات المرضية¹".

وقد أكد وضعية الطب التقليدية ما ذكره حمدان خوجة في حديثه عما يتعلق بالعلاج بقوله "...السكان هنا لا يعرفون مبادئ التطبيب، وبالنسبة لهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات ومن العادة أنهم في مثل هذه الحالات يلجئون إلى الحمية²".

وبالنسبة للكتب المعتمدة في المجال الطبي نذكر منهم الطبيب الرحالة توماس شاو "thomas shaw" الذي أكد أن الكتب العلمية التي اعتمد عليها الأطباء في الجزائر لا تتجاوز كتاب ديسكورديس³.

كما أن الكتب المستخدمة هي كتب التراث الطبي الإسلامي ومنها كتاب التذكرة لداود الأنطاكي، وكشف الرموز لعبد الرزاق ابن حمادوش الذي يتناول الجانب الصيدلي وغيرها... .

1-2- طرق العلاج المتبعة لدى السكان:

لقد تعددت أشكال وأنواع الطب خلال العهد العثماني فقد كان هناك ثلاثة أنواع منالطب وهي الطب الشعبي والطب الأوروبي والطب العثماني الذي كان يركز أساسا على التكنات العسكرية⁴.

1-2-1 الطب التقليدي:

اشتهر الطب التقليدي الذي كان يعكس الموروث الاجتماعي لعادات الأجيال عبر العصور، ولذا كانت ممارسة الطب الشعبي والطرق الاستشفائية بسيطة و غير معقدة تعتمد

¹ رحلة العالم الألماني ج،أو،هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145-1732م)تر وتق وتع:ناصر الدين سعيدوني،دار الغرب الإسلامي،تونس،2008،ط1،ص77.

² حمدان خوجة،المرأة، المصدر السابق،ص36.

³ThomasShaw,voyagedansla régence d'Alger ,ou description géographique ,physique ,philologique,etc,de cet état,par le dr.shawchez marlin éditeur,paris,1830, p80.

⁴ حفيان رشيد،الكوارث الطبيعية...المرجع السابق،ص311.

خاصة على النباتات التي توجد في المنطقة مما يوحي لنا أن طريقة اكتساب الخبرة كانت متوارثة عبر الأجيال، وكانت أيضا شفوية أكثر منها مدونة¹.

وقد وصف بعض الرحالة والمستكشفين الأوروبيين الممارسة التقليدية للطب في العديد من المناسبات وهو ما عبّر عنه هلتون سيمسون الذي قضى أربع سنوات في الجزائر واختلط بسكان الريف وبأطباء الجزائر بقوله: "...حرفة الطب بالجزائر يرثها الابن عن أبيه أو جدّه، ولهم كتب قيّمة في هذا الميدان..."².

كان الطبيب يمارس مهنته للاسترزاق في الأسواق الأسبوعية أين يعرض خدماته داخل أو خارج خيمة ينصبها، بعضهم اكتسب خبرة ونال شهرة واسعة يقصده الكثير من الناس من مناطق مختلفة.

أما عن التكوين المعرفي للطبيب فيقوم على ما تلقاه من محيطه أو مما ورثه-كما أشرنا سابقا - من نصائح عن أجداده وما تعلمه من القرآن والسنة؛ ذلك أن الطب الشعبي كان يعتمد أساسا على الطب النبوي بما احتواه من توجيهات وقائية وعلاج.

وقد اعتمد المتطببون في زيادة خبرتهم وتكوينهم على دراسة كتب الطب المعتمدة في العالم الإسلامي ونذكر منها:

- كتاب جلال الدين السيوطي
- كتاب محمد بن الحاج الكبير
- كتاب ابن البيطار
- كتاب كوهن العطار "أبي النصر
- كتاب داوود الأنطاكي
- كتاب كشف الرموز³.

¹ عثمان بوحجرة، المرجع السابق، ص22.

² hilton simpson ,arab medecine and surgery ,a study of the healing art in Algeria ,ed,london oxford university press ,1922,p07.

³ Ibid,p09.

هذا إضافة إلى الكتابين الهامين لكل من ابن سينا والرازي بالإضافة لابن البيطار، كما أن بعض من مارسو الطب اعتمدوا على بعض الكتب الإريقية القديمة، كما اعتمدوا على كتاب يدعى "دليل العلاج" ويطلق عليه الأطباء المحليون اسم "هارونيه" نسبة لهارون الرشيد الخليفة العباسي والذي أهداه له طبيب مسيحي¹، ومنهم من سافر إلى الحجاز أين احتك بأطباء آخرين لكسب الخبرة وزيادة المعارف في المجال الطبي².

لقد كان المجتمع الجزائري على دراية جيدة بالأعشاب المستخدمة للتداوي وخصائصها المختلفة، وقد كانت هذه الأعشاب متوفرة في الكثير من مناطق الإيالة، وقد كانت هذه الأعشاب تباع في الأسواق والدكاكين وتشير الباحثة فلة القشاعي إلى اهتمام اليهود بتجارة الأعشاب والعقاقير.

ومن خلال الكمية الوفيرة والمتنوعة للأعشاب اهتم المجتمع بتصنيف مختلف الأعشاب واستغلالها للعلاج، فعلى سبيل المثال استخدم سكان تلمسان وضواحيها أوراق شجرة الخروب لعلاج صداع الرأس، كما استخدم السكان طرقا متعددة للعلاج كالتداوي بالمياه والحمامات المعدنية³.

وإضافة إلى ذلك استخدم الأطباء المحليون "الفصد" وهو ما أشار إليه "المشرفي" بحيث ذكر أن ابن سينا أوصى باستخدام الشرط إن أمكن، لأنه يساعد على سيلان ما في الجسم من سموم، وقد استخدم الأطباء المحليون الفصد لعلاج مرض الطاعون خلال الفترة العثمانية⁴.

1-2-2- الحلول العلاجية الأخرى:

إضافة إلى الحلول الطبية لجأ السكان إلى التداوي بحلول تعتمد على الجانب الروحي والعقائدي فكانت زيارة المرابطين والأولياء الصالحين من الأمور الشائعة في أوساط المجتمع الجزائري

¹مصطفى خياطي، الطب والأطباء...، المرجع السابق، ص73.

²عثمان بوحجرة، المرجع السابق، ص: 22-23.

³ من بين الحمامات المعدنية التي كان يقصدها السكان لعلاج العديد من الأمراض في بايلك الغرب نذكر: حمام بوحجر (21 كلم عن مدينة عين تموشنت-)، حمام بوحنيقية (20 كلم عن مدينة معسكر)، حمام سيد الشيخ (بالقرب من مدينة مغنية)، حمام ولد خالد (بالقرب من مدينة سعيدة)، حمام عين نويسي (14 كلم عن مدينة مستغانم) وغيرها من الحمامات الكثيرة المنتشرة في كامل الإيالة. ينظر: فلة القشاعي، المرجع السابق، ص ص 290-293.

⁴حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص214.

الذي كان يقصدهم بغية تنزل البركة والشفاء من الأمراض، كما كان السكان يؤمنون بكرامات الأولياء والمرابطين، وبتأثير زيارة هؤلاء الأولياء وبركتهم في علاج المرضى وشفاؤهم .

وبالحديث عن المرابطين ودورهم في العلاج نذكر بعض المرابطين الذين اشتهروا بطرق علاجية ناجعة كانوا يقترحونها على المرضى مثل المرابط سيدي محمد زروق الذي كان يصف الأدوية التي تعالج مرض الطاعون والتي تتكون من المر المكاي والرندي ونبطة الصبر.

وقد كان يوصي المرضى بتناول هذا الخليط والممزوج من مكونات هي جزء من الزعفران مع جزئين من نبتة الصبر ثم يوضع هذا الخليط مع مشروب بذور الرند¹.

وإضافة إلى استخدام هذه الطرق كان الكثير من السكان يلجئون إلى طرق متعددة منها ما هو مستحب ومستحسن كالرقية الشرعية، ومنها ما هو محرم كاللجوء إلى السحر والشعوذة ونذكر طرقاً أخرى لجأ إليها السكان منها.

كما اعتبرت فئة من المجتمع الجزائري أن حصول الوباء عقاب من عند الله نتيجة المحرمات والمعاصي المرتكبة، وأن العلاج المناسب للأزمات الصحية هو التوبة والتقرب إلى الله بالأدعية والصلوات².

كما تكررت ظاهرة الهروب أو الفرار من الوباء في كل مرة تحدث فيها أزمة صحية، وذلك من خلال اللجوء إلى المناطق الأكثر أمناً من الناحية الصحية، وكان يلجأ السكان في معظم الأحيان إلى الأرياف، فقد كان الريف بيئة صحية وذلك لنقاء الهواء ونقص التلوث³.

1-2-3- الطب الأوروبي:

بحكم حاجة الجزائر للخدمات الطبية، كسب الأطباء الأوروبيين احترام وثقة رجال السلطة والمجتمع، ويمكن أن نقسم الأطباء الأوروبيين إلى أربعة أقسام كالآتي:

- أطباء أحرار قدموا لخدمة كبار المسؤولين .
- الأطباء الموظفين بالمؤسسات الأوروبية بالجزائر.

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص ص 301-304.

² حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص 241.

³ حفيان رشيد، الكوارث الطبيعية...، المرجع السابق، ص 323.

الفصل الثالث: السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات

- الأطباء الرحالة القادمين للجزائر للأغراض العلمية.

- الأطباء الذين يقعون في عمليات الأسر¹.

لقد كان الحكام ورجال السلطة العثمانية يثقون في الأطباء الأوروبيون وما يؤكد ذلك ما قاله الرحالة الألماني هابنسترايت بقوله "فضلا عن كونهم يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصاري في هذا الشأن ويعونهم بالعلماء تعبيراً منهم عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم"²

ويمكن تفسير الاحترام الذي كان يتمتع به الأطباء الأوروبيين إلى كفاءتهم وتخصصهم في المجال عكس الأطباء المحليين الذين كانوا يمتنون حرفة الطب بطريقة وراثية عن الأجداد. تميز الطب الأوروبي في الجزائر بنظام علاجي يتمثل في وجود طاقم طبي في كل مستشفى يتكون من كهنة وطبيب وجراح وإداري وأحيانا يكتمل تعداد الطاقم بوجود ممرضين وطباخين الذين يتم اختيارهم من طرف الأسرى المتواجدين بالسجون³.

ومن بين الهياكل الاستشفائية الأوروبية في بايلك الغرب الجزائري نذكر المستشفى الاستشفائي بوهران الذي يعد أول مستشفى أوروبي بالجزائر تم تأسيسه سنة 1509م. لقد استفاد رجال السلطة كثيرا من الطب الأوروبي فالكثير من الحكام كانوا يلجئون إلى الأطباء الأجانب.

وقد كانت الأمثلة خلال فترة الدراسة كثيرة ونذكر منها لجوء الداوي علي خوجة خلال سنة 1818م إلى طبيب إسباني يدعى خوان فرننيز دي لاس هراس "Dr Juan Fernandez se las heras"⁴. وفي نفس السياق نجد أن الداوي علي بابا قد اتخذ طبيبا أسيرا للتكفل بعلاجه سنة 1754م، كما فعل نفس الأمر الباي صالح باي الذي كان يعالجه طبيب إيطالي يدعى باسكال قاميزو "pascal gamisot".

¹ فوزية لزغم، الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة عصور، مج: 12، ع: 2، ديسمبر، 2013م، ص: 240.

² ج.أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس (1145هـ-1732م)، تر وتو: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص: 77.

³ مصطفى خياطي، الطب والأطباء...، المرجع السابق، ص: 93.

⁴ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص: 356.

بينما كان يشرف على صحة الباي بوكمية خلال سنة 1713م الطبيب الهولندي المدعو سانسون "sanson"، كما كان يتكفل بصحة خزناسي الداي حسين الطبيب الأسير الألماني سيمون بيفايير "pfeiffer"¹.

2- دور السلطة والمجتمع في التصدي للأوبئة والمجاعات:

لقد شكّلت الأزمات الصحية والمعيشية التي حلت بالمجتمع مقياسا حقيقيا لكل من السلطة السياسية والمجتمع تظهر مدى تكافل وتأزر أفرادهم وقت الشدائد، لذلك سنتطرق إلى بعض الجزئيات كالآتي:

1.2. تعامل السلطة مع الأوضاع الصحية:

اختلفت آراء الباحثين حول تعامل رجال السلطة فمنهم من يرى أن السلطة في الجزائر كانت كغيرها من الأقطار الإسلامية لا تحترم الإجراءات الوقائية في معظم الأحيان²، لهذا رأى بعض الباحثين أن موقف الحكام كان ما بين الإهمال واللامبالاة، وانعدام سياسة صحية متبعة وواضحة المعالم اتجاه الأوبئة والأمراض المهلكة³.

وعلى العموم فقد تراوح موقف رجال السلطة بين الإهمال تارة واللامبالاة تارة أخرى لأنه وفي واقع الأمر كانت علاقة الأتراك عامة والإنكشارية خاصة بسكان الريف تتميز إما بالنفور أو العداوة وإما باللامبالاة بين الطرفين، لأن تواجد الإنكشاري في الريف لم يكن سوى خلال أعمال المحلة.

وكانت الضريبة هي الرابط الفعلي بين مركز السلطة وسكان الريف؛ ومنه كانت الجباية هي نقطة التلاقي بين الطرفين⁴.

¹قصة الفشاعي، المرجع السابق، ص358.

² أرزقي شوتيام، المرجع السابق، ص191.

³ عثمان بوحجرة، المرجع السابق، ص73.

⁴ جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببابك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008، ص80.

تعددت الآراء حول إدارة السلطة العثمانية لأزمات المجتمع الجزائري الصحية فمن الباحثين من يشير إلى عدم اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة للتصدي للأوبئة وهذا الرأي لا نميل له وأن الكثير من الأدلة والشواهد تثبت المساهمة الإيجابية وجهود السلطة العثمانية في التصدي للأوبئة

ومع ذلك إننا لا ننكر تقاعس بعض الحكام عن أداء مهامهم ومسؤوليتهم في التصدي للأوبئة مثلما وقع خلال سنة 1718م بحيث انتشر الوباء بفعل قدوم سفينة حاملة للوباء من الإسكندرية ولم تتخذ ضدها أي إجراءات وقائية الأمر الذي أدى لتفاقم انتشار الوباء في مختلف المناطق¹. وكذلك الأمر خلال سنة 1786 والذي انتقل الوباء إلى الجزائر عن طريق سفينة محملة بالحجاج القادمين من ميناء الإسكندرية والتي لم تتخذ السلطة أي إجراء وقائي ضدها الأمر الذي أدى إلى انتشار الوباء في كامل أرجاء الإيالة².

ولقد ذكر سعد الله أن البايات لم يهتموا بصحة السكان، وإنما فقط بصحتهم الخاصة ولم يشجعوا على دراسة الطب، بل لم يؤسسوا مدارس لهذا الغرض³، ولم يهتموا بأمور الصحة ولم يولوها العناية اللائقة بها، كما لم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد الأمراض⁴، وبالتالي فإن الرعاية الصحية لم تكن في المستوى المطلوب لأن الحكام لم يلتزموا بنظام وقائي ثابت.

فهناك من الحكام من اختار الفرار من الوباء مع عائلته إلى مناطق معزولة وبعيدة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ولا يعودون إلا بعد اختفائه كما فعل محمد توكلي الذي فر إلى مدينة الجزائر خوفا من الطاعون، حيث احتفى تحت خيمة بمنطقة رأس كاكسين⁵.

وكذلك الشأن بالنسبة للباي عثمان باشا بن محمد الكبير سنة 1794م الذي خرج من مدينة وهران مع أهله وحاشيته ليظل مدة 3 أشهر في سهل مليثة⁶. بالإضافة إلى أن العديد لم يلجأ إلى تطبيق الحجر الصحي المعروف بالكرنتينة¹.

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص348.

² Jean marchica, op cit, p117.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص: 418-419.

⁴ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص: 83.

⁵ سمية مجاهد، المرجع السابق، ص20.

⁶ كمال صحراوي، المرجع السابق، ص176.

لقد ذكر حمدان خوجة في احتراز المسلمين من الوباء بقوله: "... وأما ما رأيت في احتراز المسلمين من قواعد الكرنتينة في شيء... وأكثر أتباعهم يمشون في الأسواق ويقتحمون مجتمع الناس ويدخلون الحمامات"²، ولكن لا يمكننا الجزم بعدم وجود الحجر الصحي بالمرّة، فلقد كانوا يوقفون السفن الواردة فترة معلومة قبل أن يسمحوا لها بالدخول إلى الميناء سواء كانت سفينة قادمة من بلاد إسلامية أو بلاد مسيحية³.

لم يكن يسمح بنزول الحجاج من السفن عند انتشار عدوى الوباء حتى يتأكد من سلامة الحجاج من الطاعون، بحيث كان قائد المرسى بمدينة الجزائر ومساعدوه يمنعون الحجاج من الدخول إلى مدينة الجزائر أو التوجه إلى الأقاليم الداخلية إلا بعد التأكد من عدم إصابتهم بعدوى الطاعون⁴.

وقد تحدث عن ذلك عبد الرزاق ابن حمادوش في رحلته قائلا: "... وفي الثالث من رجب الموافق لآخر يوم من يوليو قدم علينا مركب من الإسكندرية بالحجاج وفيه الوباء فمنعهم الباشا من الدخول، حمية من أن يقوم ممرض على مصحّ إلى الثامن عشر أوت أذن لهم في الدخول، بعد تحقق سلامتهم من المرض المذكور"⁵.

نقف على بعض المساعي التي حاول تطبيقها عدد من دايات وبايات الجزائر، كما هو الحال بالنسبة لداي الجزائر " محمد بن عثمان خوجة " خلال سنة 1781 م عندما رفض السماح لأحد السفن الفرنسية القادمة من مرسيليا والمحملة بالبضائع المختلفة الرسو في ميناء مدينة الجزائر؛ لاشتباه إصابة طاقمها بالطاعون، وهذا حسب وثائق أرشيفية، إلا أن هذا لم يكن ناجعا إذ قام مجموعة من الأشخاص بمساعدة هذه السفينة على النزول في ميناء مدينة عنابة، كما تفشى هذا الوباء حينها في الجهة الشرقية للإيالة عن طريق البر⁶.

1- الكرنتينة (الحجر الصحي): إقامة جبرية في معزل لمدة 40 يوما عند الثغور لكل وارد أجنبي سلعة سواء كان مريض معديا أو مشكوكا فيه حتى يتحقق بروء وسلامته، انظر، عقاد سعاد، المرجع السابق، ص55.

2- حمدان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز من الوباء، المصدر السابق، ص04.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص418.

4- عثمان بوحجرة، المرجع السابق، ص79.

5- ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص121.

6 خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص249.

ونلمس ذلك كذلك في حرص بعض الحكام على اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية، ففي سنة 1785م سارع فرسان الحامية التركية المرابطة بعنابة بإقامة حزام صحي حول المدينة، بغية الحيلولة دون تسرب العدوى إلى سكان المدينة من القبائل المصابة بالطاعون في جهات القالة ونواحي سهل عنابة¹.

كما نذكر ما قام به الداوي سنة (1786م) حيث رفض استقبال سفينة قادمة من تونس كانت تحمل عائلات تونسية اشتبه في إصابتهم بالوباء، إلا أن هذا القرار لم ينجح في مكافحة تفشي هذا الوباء في الجزائر خلال تلك السنة، إذ استطاعت حمية النوبة في تسريب الوباء إلى الجزائر عن طريق عنابة².

كما أمر صالح باي بفرض حزام صحي حول عنابة سنة 1787م ذلك لمنع انتقال وتسرب العدوى، كما منع سكان بايلك قسنطينة من الاحتكاك بقبائل إيالة تونس خلال فترات الأوبئة وفرض عليها نظام الكرنيتية، وفي سنة 1791م بادر الداوي حسان باشا بأمر حاجبين بتطبيق نظام الحجر الصحي على نفسيهما³.

لم يتمكن الحكام بالالتزام بقاعدة صحية أو وسائل وقائية طيلة التواجد العثماني بالجزائر، بل كان الأمر يتوقف على مدى وعي كل حاكم بخطورة الوضع الكارثي وما ينجم عنه من عواقب وخيمة على البلاد⁴.

في حين نرى أن الفئات الأخرى من السكان كالمسيحيين مثلا اتخذوا الحيطة والحذر في مواجهة الأمراض، فلقد كانوا على ما يكفي من الاحتراز إذ أعلن حظر شراء الملابس، ويوضح ذلك حمدان خوجة بقوله: "... أما النصارى الساكنون في الجزائر ونحوها حينئذ فلهم احتماء واحتياط تام، بحيث لا يخرجون هم ولا خدامهم ولو إلى زقاق"⁵.

¹- ناصر الدين سعيدوني، "ورقات جزائرية" دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 462-463.

² خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 250.

³ - فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 367.

⁴ - عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 65.

⁵ - حمدان خوجة، إتحاف المنصفين...، المصدر السابق، ص 44.

ومهما يكن من الأمر فإن أفراد المجتمع لم ينتظروا مساعدات من الإدارة لحل مشاكلهم الصحية؛ حيث كانت لهم تنظيمااتهم الخاصة التي مكنتهم من التكفل بأحوالهم ونعني بذلك مؤسسة الأوقاف التي كانت مداخيلها تصرف على متطلبات السكان¹، وكانت الزوايا من أهم المراكز الصحية بالريف فقد كانت تسهر على تجنيد أطباء للسهر على علاج المرضى كما كانت بعض المساجد تساهم أيضا في تقديم خدمات العلاج والإسعافات الطبية².

2-2- دور السلطة في التصدي للمجاعات:

في ظل الأزمات الغذائية المتعاقبة على البلاد كان من الضروري للسلطة السياسية من التصدي للمجاعات وضمان الغذاء للسكان، وقد اختلفت الإجراءات المتخذة باختلاف رجال السلطة ومدى اهتمام كل منهم برعيته³.

ومن خلال وقوفنا على المصادر المحلية التي تؤرخ للفترة المدروسة نجد أن قلة من المؤرخين قد خصصوا مساحة في كتاباتهم حول هذه الأزمات الغذائية، والمؤلف البارز في هذا السياق كتاب محمد صالح العنثري بعنوان "مجاعات قسنطينة" والذي يتحدث عن المجاعات التي ضربت قسنطينة وضواحيها ومدى تأثيرها على المجتمع في بايلك الشرق.

قبل عرض المواقف المتعلقة بدور رجال السلطة في التصدي للمجاعات لابد من الإشارة إلى ما ذكرناه سابقا حول أسباب ظهور الأزمات الغذائية حيث أن السلطة كانت هي نفسها أحد العوامل الرئيسية في حصول المجاعات من خلال السماح للتجار اليهود بتصدير الحبوب إلى أوروبا رغم أنها في كثير من الأحيان كانت تتزامن مع وجود ندرة من هذه المادة في الأسواق.

من الضروري التنبيه إلى أن السلطة قد اتبعت العديد من الإجراءات الاحتياطية فقد كانت ملزمة في كل الأحوال بتأمين مخزونات كبرى من القمح لتأمين حاجة الجيش والموظفين لديها

1- محمد الزين، "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع: 17، جامعة الجيلالي الياقوب-سيدي بلعباس، 2012، ص 133.

2- مصطفى خياطي، الطب والأطباء، المرجع السابق، ص: 49-50.

3 يمكن تفسير عدم وجود تفاعل حقيقي وردود فعل في المستوى المطلوب لعدة أسباب وأهمها الطابع العسكري لبابك الغرب والصراعات السياسية المستمرة في ظل تواجد الاحتلال الإسباني كون السلطة وجهت كل اهتمامها صوب المجال العسكري دون الالتفات الحقيقي إلى هذه الأزمات، وإضافة إلى ذلك كانت هذه الأزمات مفاجئة سواء للسلطة أو للمجتمع مع عدم وجود احتياطات وتدابير لازمة لإدارة الأزمات، كما أن الكثير من المؤونة كانت السلطة تضطر إلى إخراجها لحاجتها لها وقت الحروب والتمردات المحلية. ينظر: خير الدين سعيد، المرجع السابق، ص 265.

إضافة إلى تدعيم الأسواق في الحالات الاستثنائية، غير أن هذه المخازن لم تكن تتعدى الادخار العائلي الخاص¹.

ولم تكن لدى السلطة أهداف واضحة في هذا المجال سوى بعض المرات القليلة التي يدّخر فيها الحكام المنتج الوفير من القمح تحسباً لأي أزمة مثلما فعل الباي محمد الكبير حين قام بإنشاء مخازن للقمح لتخزينها تحسباً لوقوع أي مجاعة محتملة، كما فتح المطامير للفقراء في أوقات القحط، كما كان يقوم بمحاربة الاحتكار وغلاء أسعار الحبوب بطرح هذه المدّخرات في الأسواق عند أوقات الأزمات².

هذا الدور الإيجابي في بايلك الغرب يمكن مقارنته بما وقع في بايلك الشرق حيث يشير صالح العنتري إلى الدور السلبي الذي لعبته السلطة أيام المجاعات ففي إحدى المرات تقاعست السلطة عن أداء مهامها وقد عبر عنها بقوله "... أما جانب المخزن في تلك المجاعة والشدة فلم تظهر منه إعانة كافية لعامة الضعفاء"³

كما أن السلطة في مختلف المناطق كانت تتخذ قرارات هامة في الظروف المعيشية الاستثنائية وتتمثل في ضبط الأسعار ومنع التصدير⁴.

ونجد تفاعلاً إيجابياً للسلطة مع المجاعة وذلك خلال سنة 1827 والتي تزامنت مع وقوع مجاعة كبيرة قد سبقنا الإشارة إليها، وإلى ذلك يشير المزارى بقوله "... وقع غلاء عظيم وقحط فيه الناس إلى أن صار الباشا يفرق الرغيف بالمدن على الناس، فسمي العام بعام خبز الباشا وتواتر على اللسان للآن وفاشاً"⁵.

بالرغم من الإشارة الموجزة للمزارى إلا أن هذا دليل على تفاعل السلطة العثمانية مع أزمات المجتمع الغذائية فحتى لو لم تقضي عليها بشكل تام فقد ساهمت بالتقليل من شدتها.

¹ خير الدين سعيدى، المرجع السابق، ص246.

² بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص144.

³ صالح العنتري، المصدر السابق، ص41.

⁴ وليام شالر، المصدر السابق، ص101.

⁵ بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص361.

ونقف على نموذج آخر لتضامن السلطة مع المجتمع في مقاطعة دار السلطان بحيث أدى اجتياح الجراد للحقول والبساتين سنة 1815م إلى ظهور المجاعة بعد شح المحاصيل وارتفاع الأسعار ما دفع الفقراء والمحتاجين إلى مهاجمة المخازن للحصول على ما يسد رمقهم. وقد تفاقمّت هذه الأزمة بعد حصول الجفاف خلال 1817م، الأمر الذي جعل الداي يدعو العلماء وأهل الفضل للتنظيم صلاة الاستسقاء في مدينة الجزائر يوم 16 أفريل 1818م، كما أن استمرار المجاعة دفع بالباي خلال سنة 1819م إلى استيراد 50000 كيلا من القمح لسد حاجيات سكان المدينة¹

2-3- التفاعل الاجتماعي مع الأزمات الغذائية:

بعد التعرض إلى تفاعل السلطة السياسية ننتقل إلى تفاعل القوى الاجتماعية أثناء حصول المجاعات المهلّكة

لقد كانت هناك العديد من صور التفاعل الاجتماعي خلال الأزمات والتي تعكس مدى التماسك والتضامن الذي كان عليه الجزائريون، لذلك سنذكر بعض ردود الفعل لدى المجتمع من خلال ما يلي:

2-3-1- الأعمال الخيرية:

لا نجد إشارات صريحة تبين وترصد الأعمال في الجهة الغربية، عكس الجهة الشرقية التي يتحدّث عنها العنثري ويثني على السلوك الاجتماعي بهذه المنطقة والذي يدل على التكافل بين أفراد المجتمع بقوله "...أنهم بذلوا جهدهم في إعطاء الصدقات للضعفاء فمنهم من يطعم الطعام ويسقي، ومنهم من يحضر الحبوب بالرحبة في صورة البائع فتجتمع عليه الناس، ويكتال كل واحد نصيبا، وحين تنقضي تلك الحبوب ويحوزها المكتالون لها ينادي ربها بلسان فصيح يا عباد الله كل

¹ ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجبابة في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ط2، ص98.

من أخذ شيئاً فهو له خالص لا أخذ منه ثمنه، ويذهب في حال سبيله فيفرح الناس حينئذ ويشكرون فعله¹

وفي سياق الحديث عن الأعمال الخيرية وبحكم كثرة الزوايا في بايلك الغرب الجزائري فقد قامت الزوايا في المنطقة أو في مختلف حواضر المغرب الإسلامي بأدوار محورية في الحياة الاجتماعية بالموازاة مع الأدوار الدينية، فقد كان الإطعام والإيواء من الخصال الحميدة لشيوخ الزوايا، وخلال فترة الأزمات الغذائية كانت تتكفل بإطعام طلبة العلم والفقراء والمحتاجين وعابري السبيل².

2-3-2-2- الادخار:

لقد شكّل الادخار أحد الطرق الاحترازية التي ينتهجها المجتمع الجزائري لمواجهة الأزمات الغذائية المحتملة خلال فترة تواجد العثمانيين، حيث كان الناس يخزنون الحبوب في حفر عميقة كانوا يسمونها المطمورة.

حيث أن هاته المطامر تُخزن فيها الحبوب لمدة طويلة دون تلف بسبب بعدها عن الهواء والرطوبة، وهذا حسب ما أكدته لنا المصادر المحلية، ونذكر على سبيل المثال حمدان خوجة في كتابه المرأة³.

مما جعل بعض بايات قسنطينة يلجئون إلى هاته المخازن وإشراك السكان في إيجاد حل للمجاعات التي تحل بهم حيث قال العنتري: " وحرص الكل بإخراج الزرع الفاضل منهم لرحبة البلد فصار الزرع يدخل البلد شيئاً فشيئاً "4

كما لم يقتصر سلوك الادخار على أفراد المجتمع بل كان لرجال السلطة مبادرات لتوفير مخازن تلجأ إليها وقت الحاجة وعلى سبيل المثال نذكر ما قام محمد الكبير في بايلك الغرب " وطرّد المجاعة بتخزين الحبوب وقت حصادها وتفريقها على المحتاجين عند الحاجة "1.

¹ يشير العنتري إلى الكثير من الأمثلة عن التكافل الاجتماعي والتي اكتفينا بهذا النص منها ولمن اراد التوسع أكثر في هذه الجزئية ينظر: صالح العنتري، المصدر السابق، ص 40-41.

² ادريس بلعابد، الطقوس والشعائر الدينية الممارسة لمواجهة الجوائح والكوارث في الغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، مجلة القرطاس للدراسات التاريخية والحضارية والفكرية، مج 6، ع 12، جويلية 2019، ص 42.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 310.

⁴ صالح العنتري، نفسه، ص 310.

وقد كان الباي محمد الكبير نموذج لرجل السلطة المبادر للإحسان إلى الرعيّة وفي نفس السياق يثني عليه كاتبه ابن هطال التلمساني بقوله " وكان طباخو قصره بمعسكر رهن إشارة الفقراء والجائعين وكان يوزع بنفسه الألبسة على العراة من الرعيّة لاسيما وقت الشتاء، وكان يداوي بنفسه المرضى والفقراء ويعالجهم ويتألم لوجعهم، وكان يوزع الأموال على الفقراء²"

3- أشهر الأطباء في بايلك الغرب:

لقد كان عدد الأطباء والممارسين للطب بالجزائر خلال العهد العثماني قليلا نوعا ما، وقد عبّر عن ذلك لوجي دو تاسي "Laugier de tassy" والذي كان متواجدا بالجزائر خلال سنة 1724م بنوع من المبالغة في نقص الأطباء قائلا:

" العرب لا يعرفون طبيا غير الطبيعة... لا يوجد أيّ طبيب لا في مدينة الجزائر، ولا في أيّ ناحية من المملكة³".

يبدو أنّ لوجي دو تاسي قد عبّر عن رأيه الخاص الذي يلزمه بحيث يقلل من شأن المجتمع الجزائري وأنّه لا يوجد فيه مهنة الطب أساسا وهذا الرأي نفسه عند الكثير من المؤرخين الأجانب الناقمين على الجزائر عموما في هذه الفترة.

نحاول في هذا الإطار التطرق لأطباء بعض الحواضر في بايلك الغرب كالآتي:

3-1- تلمسان:

عرفت مدينة تلمسان بروز الكثير من العلماء في مختلف المجالات وعبر مختلف المراحل وخلال العهد العثماني اشتهر العديد من الممارسين للطب أو الأطباء الذين جمعوا مختلف العلوم ونذكر منهم:

-محمد بن محمد بن أحمد "ابن مريم التلمساني":

¹أحمد بن هطال التلمساني، المصدر السابق ، ص 31.

² نفسه، ص 25.

³Laugier de tassy, histoire de la médecine arabe, paris, Edition loyael, 1992, p82.

الفصل الثالث: السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات

المشهور بابن مريم وهو أبو عبد الله الشريف المليتي نسبا المديوني أصلا له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم أشهرها كتاب ترجمة لأهم علماء وأعيان تلمسان بعنوان " البستان في ذكر علماء وأولياء تلمسان "1

وإضافة إلى كونه مؤرخا فقد كان طبيبا كتب في الطب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل"2
-محمد بن سليمان بن الصايم التلمساني:

وقد كان معروفا باسم الجزولي، اهتم بالتصوف كما اهتم بالطب ولد سنة 1068 وهو تلميذ ابن مريم صاحب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ترك موسوعة حول تراجم الصوفية، كما له منظومة شعر حول الأحجام الطبيّة3.

-محمد بن أحمد الشريف الحسني:

طبيب عاش في تلمسان وقد عرف باهتمامه بمجال التصوف وميوله إليه، ألف رسالة في الطب مكونة من 13 صفحة شرح فيها الأحاديث المتعلقة بالوقاية من الأوبئة وقد جاءت هذه الرسالة بعنوان "المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى" وقد أهداها إلى السلطان العثماني أحمد باشا خلال سنة 1149هـ4.

-عبد الله بن عزوز المراكشي:

وهو عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز التلمساني، كما عرف أيضا باسم "سيدي بلال"، وقد عرف بالعديد من المؤلفات في بعض العلوم، وبالنسبة للطب فله مخطوط من 188 صفحة في أرشيف مكتبة باريس تحت رقم 4758 وعنوانه: ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة"، وقد تناول فيه الكثير من المواضيع في المجال الطبي توفي خلال سنة 1780.

3-2-وهران:

1 عادل نويهض، مرجع سابق، ص ص 100-101.

2 مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية....، المرجع السابق، ص 119.

3 نفسه، ص 118

4 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص 421.

عرفت مدينة وهران بكثرة أوليائها وعلمائها سواء المولودين فيها أو الوافدين عليها من مختلف المناطق وخاصة من الجهة الغربية للجزائر ونذكر منهم في مجال الطب ما يلي:

-أحمد بن علي الراشدي:

وهو معروف بابن سحنون كان أمين مكتبة الباي محمد الكبير بوهران وقد ألف بطلب من الباي معجم طبي بعنوان "المنحة القدوسية في الأدوية القاموسية"، وتوجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1768 و1769¹ في جزئين، وقد تمت مكافئته على هذا التأليف من قبل الباي محمد الكبير².

كما له منظومة حول الطاعون الذي مسّ معسكر خلال سنة 1786م، وقد اشتهر ابن سحنون أكثر بكتابه الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني الذي كتبه بمناسبة تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني³.

-الشيخ عبد الطيف:

عايش فترة الباي محمد الكبير وبطلب منه ألف كتابا حول الطب النبوي بحكم اهتمامه واختصاصه بالطب النبوي وموضوعه الأحاديث التي تعالج ميدان الطب بعنوان "المنهل الروي والمنهج السوي في الطب النبوي"⁴

هذا بالإضافة لعديد الأطباء الذين برزوا بمدينة وهران كعثمان بن سحنون الونشريسي الذي كتب بطلب من الباي محمد الكبير قاموسا في الطب، إضافة إلى الطبيب بن طلحة الوهراني وغيرهم⁵.

وبالحديث عن الأطباء والمداون بمدينة وهران تذكر العديد من المصادر ان الباي محمد الكبير كان طبيبا ماهرا، كما أنه اعتنى بالطب وقام بتكريم الأطباء والعلماء الذين ألفوا فيه

¹¹أنظر الملحق رقم 5

²مصطفى خياطي، الطب والأطباء...، المرجع السابق، ص126.

³ نفسه.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص419.

⁵مصطفى خياطي، المرجع نفسه، ص127.

وأجزل لهم العطاء كما كان شديد الاهتمام بالطب النبوي والافتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في نصائحه وتوجيهاته في هذا المجال.

وفي هذا الصدد وصفه كاتبه أحمد بن سحنون الراشدي قائلا: "وله في الطب اليد الطولى، والمرتبة العليا، فهو يصف إلى الناس الأدوية ويدفع لهم ما حضر عنده حتى إن المسكين وغيره يفرعون إليه في ذلك كما يفرعون إلى الطبيب الماهر"¹.

3-3-معسكر:

وبالنسبة لمعسكر نجد أن العالم الكبير أبو راس الناصري قد ألف هو كذلك في الطب بعض الرسائل في هذا المجال مثل الكوكب الدري في الكلام عن الجدري. كما ألف العلامة أبو راس رسالة أخرى بعنوان "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون"، خصوصا وأنه عاصر فترة شهدت الكثير من أوبئة الطاعون التي ضربت حواضر بايلك الغرب كمعسكر وتلمسان وقد توفي هو نفسه بالوباء كما سبق ذكره.

3-4-أبرز الأطباء في الإيالة:

أما بالنسبة للإيالة فنجد أن هناك أطباء بارزون ومن أشهرهم على الإطلاق عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حماد وش² الذي تميّز عن معاصريه بالاهتمام بالمجال الطبي والصيدلي وقد أشاد بهذا الطبيب الكثير من الباحثين الأوروبيين، كما قام الباحثين لوسيان لوكير "lucien leclerc" وغابريال كولان "gabriel colin" بترجمة أحد الأجزاء من مؤلفاته والمعنون ب "كشف الرموز"³ والخاص بالأعشاب الطبية وخصائصها وفوائدها المختلفة¹.

¹ أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص156.

² هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المشهور بابن حمادوش الجزائري ولد في مدينة الجزائر سنة 1695م وقد عاش حوالي تسعين سنة جاب خلالها الكثير من البلدان في المشرق والمغرب وقد دون ذلك في رحلته المسماة "لسان المقال" وما يهمنها في التعريف بهذه الشخصية هو أنه بالرغم من اهتمامه بالفقه والتصوف والنحو والتاريخ والأدب، قد انفرد عن معاصريه بالاهتمام بالجانب العلمي وهذا ما سنبيّنه في مؤلفاته ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تق وتحت: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ط 10-09.

³ يعد كشف الرموز بمثابة القاموس الطبي الذي صنف فيه بن حمادوش مختلف الأدوية وما تعالجه من أمراض، كما يتحدث عن النباتات والعقاقير ومختلف تسمياتها عند بعض سكان المشرق الإسلامي كمصر وسوريا وغيرها، إضافة إلى أسماء الأدوية الواردة من البلدان الأوروبية إلى الجزائر، كما جمع في الكتاب ما يهم من أدوية عند المسلمين والأوروبيين خلال عصره وقد

وعموما فقد ألف عبد الرزاق بن حمادوش عدّة كتب في الميدان الطبّي فإضافة إلى كشف الرموز نذكر منها على سبيل المثال "الجوهر المكنون من بحر القانون"² والذي اعتمد فيه على كتاب القانون في الطب لابن سينا وكتاب "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج" وقد اعتمد في تأليفه هذا علم مجموعة من العلماء المسلمين ومنهم البرزلي والشاذلي والطار والجاحظ وابن اسحاق وابن سينا والعايشي وأبيقراط وغيرهم معتمدا على مجموعة من الأحاديث النبويّة الشريفة³.

-أحمد بن قاسم البوني:

كما نجد الطبيب أحمد بن قاسم البوني وهو أشهر أطباء الإليالة بعد ابن حمادوش بحيث ألف العديد من الكتب والرسائل في مجال الطب مثل رسالة بعنوان "إعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة"⁴ والذي تناول فيه العديد من الأمراض كما وصف الأدوية المناسبة لعلاجها، كما نجد أنه صنّف كتابا آخر بعنوان "مبين المسارب في الأكل والطب مع المشارب" وبالمقارنة مع التأليف الأول فقد كان هذا التأليف أكبر حجما، كما تعددت مصادره بحيث جمع فيه بين العلم والخرافة، وقد اعتمد في تأليفه لهذه الرسالة على مجموعة هامة من كتب الطب الإسلامي المعتمدة كما تحدث عن وباء الطاعون وأعراضه وتأثيراته⁵.

-محمد بن رجب الجزائري

وهو أحد أطباء مدينة الجزائر ألف خلال كتاب حول الطاعون الذي ضرب مدينة الجزائر بعنوان "الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون" والذي يتحدث على الطاعون الذي ضرب مدينة الجزائر خلال 1786م⁶،

اعتمد على بعض العلماء المسلمين في تأليفه هذا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 447-448.

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص 274.

² انظر الملحق رقم 2.

³ فلة القشاعي المرجع نفسه، ص 282.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص 419.

⁵ رشيد حفيان، الكوارث الطبيعية...، المرجع السابق، ص 313.

⁶ أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ص 423-424.

-محمد بن علي بن باديس الصنهاجي:

طبيب لا يعرف بالتحديد موطنه ولا عصر تأليفه بالضبط ألف كتابا في الأدوية وفوائدها بعنوان "المنافع البينة ويصلح بالأربعة أزمنة" وقد اعتمد فيه على الطب النبوي فقد جمع في هذا الكتاب ما اختصره من كتب الطب ومختلف الأحاديث في مجال الطب¹، يتكون هذا الكتاب من ثلاثين صفحة وهو على شكل مخطوط من نسختين بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 8544 و9250².

ولم تقتصر ممارسة الطب على العنصر المحلي إضافة إلى الأطباء المحليين كان هناك أطباء أوروبيون على اختلاف وضعياتهم بالجزائر فقد كان هناك الأسرى ونذكر منهم «امانويل موري لو» الذي قدم لإنقاذ مرضى المستعمرة الإسبانية بوهران في سنة 1678 م، وقد استغل ثروته الخاصة لشراء الأدوية وتوزيعها على المرضى، وفي نفس العام عاشت مدينة ملقة الإسبانية ظهور الوباء بسبب قدوم سفينة من وهران كانت محملة بالكتان.

كما نجد كل من الطبيب الهولندي "سانسون" والطبيب الإيطالي "باسكال غاميزو" والجراح الإسباني "سانشيز" والطبيب "اندري هيل" والطبيب الألماني الأسير "سيمون بيفير"، إضافة إلى عدد معتبر من الأطباء المأخوذون على شكل أسرى³.

4-الأوضاع الصحية والمعيشية في المؤلفات المحلية والأجنبية:

حاولت المؤلفات المحلية إعطاء لمحة عن الوضع الصحي وإن كانت في غالب المصادر لا تتعدى التلميحات العابرة والتي تفتقد للدقة وتشخيص الوضع، مع أن بعض المؤلفات غلبت عليها النظرة الفقهية والاكتفاء بما هو مدون في المجال كما ذكرنا سابقا، في حين استطاعت

¹ تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص424.

² مصطفى خياطي، الطب والأطباء، المرجع السابق، ص 128.

³ نفسه، ص ص 107-111.

المؤلفات الأجنبية أن تقرب لنا صورة الأوضاع الصحية وتأثيراتها المختلفة اعتمادا على إحصائيات ومعطيات تقريبية.

لذلك سنذكر في هذا الصدد ما أتيح لنا في هذا السياق:

4-1- المؤلفات المحلية:

خلال العهد العثماني شهدت الجزائر العديد من المصنفات والمدونات العلمية والتاريخية التي تناولت الأزمات الصحية والغذائية سواء في كافة مناطق الإيالة أو في بابلك الغرب على وجه الخصوص.

وقد كانت هذه المؤلفات تعكس مدى تفاعل العلماء والأدباء مع هذه الأوضاع ومحاولة الإلمام بمختلف الجوانب المتعلقة بهذه الأحداث، وبالنسبة للمؤلفات فقد تعددت أشكالها بين كتب وقصائد ورسائل غلب عليها في كثير من الأحيان الطرح الفقهي والاعتماد على كتب التراث الإسلامي الكلاسيكية.

بالنسبة لبابلك الغرب من بين المصنفات العلمية التي تناولت وباء الطاعون قصيدة أحمد بن سحنون حول الطاعون الذي اجتاحت مدينة معسكر سنة 1787 ما جعل هذا الأخير يغادر معسكر فرارا من الطاعون¹، كما لا ننسى ما ألفه أبو راس الناصري حول هذا الوباء بعنوان "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون"، وقد فصل فيه المقولات التي تناولت الطاعون وما يلحقه من أضرار ويبدو أنه لا حظ طاعون 1787 وقد كان شاهد عيان خلال هذا الوباء بمعسكر وضواحيها².

كما نجد كتاب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين" للكاتب أبو حامد المشرفي ويذكر الباحث حمدادو بن عمر أهمية هذا التأليف كونه يعكس التصور العام لوباء الطاعون ومختلف المفاهيم والإشكاليات المصاحبة لأدبيات الطواعين، كما يناقش الجانب الفقهي في مسائل

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص423.

² وافية نفطي، مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة آفاق فكرية، م5، ع10، ماي،

2019، ص28.

العدوى ومشروعية الوقاية والعلاج، إضافة إلى الإجراءات الصحية المصاحبة لهذه الأوبئة من طرف المجتمع والسلطة معا¹.

-بالنسبة للإيالة:

من بين أهم المؤلفات المحليّة التي عايش أصحابها مختلف الأزمات وأظهروا تفاعلهم معها ونذكر ما ألفه حمدان بن عثمان خوجة بعنوان "اتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" والذي يناقش فيه الكاتب حمدان خوجة بعض المسائل الفقهية والمتعلّقة بالجانب الطبي والوقائي.

كما يظهر حمدان خوجة من خلاله إعجابه بالأنظمة الصحية المتبعة في أوروبا خصوصا في جانب تطبيق الحجر الصحي ويؤكد على ضرورة الاستفادة من تجارب النصارى للحفاظ على الأنفس ويشير أيضا من خلال الكتاب إلى السلوكيات السلبية للمجتمع الجزائري تجاه الأوبئة والأمراض وعدم الجدية في اتخاذ التدابير اللازمة لتجنب انتشار الوباء وتأثيراتها المختلفة.

أما بالنسبة للمجاعات فهناك كتاب من بين الكتب القليلة التي تعالج قضية جزئية تمس المجتمع الجزائري وتتجنب النمطية التي تغطي على كتابات المؤرخين المحليين وهي للكاتب صالح العنثري بعنوان "مجاعات قسنطينة"

ويتميّز هذا الكتاب برصد المجاعات التي ضربت بايلك الشرق عموما ومدينة قسنطينة وقد لمسنا في هذا الكتاب بعض التميّز في طرح موضوع المجاعات فهو لا يكتفي بالسرد الجاف للمجاعات بل يحسب له التطرّق إلى مختلف التأثيرات الاجتماعية للمجاعات، كما يرصد من خلال طرحه التفاعل مع هذه الأزمات سواء من جانب السلطة الحاكمة أو من خلال القوى الفاعلة في المجتمع.

¹ حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص232.

كما لمّح العنتري إلى بعض الأسباب المؤدية لحدوث المجاعات مثل ثورة ابن الأحرش الدرقاوي وغيرها، وهذه الجزئية سبق الحديث عنها من خلال أن عدم استقرار الوضع الأمني هو أحد أسباب حصول المجاعات، كما يحاول الكاتب أن يعكس التأثير الفكري والنفسي لهذه الازمات على مجتمع بايلك الشرق الجزائري.

كما نجد رسالة ألفها محمد بن رجب الجزائري حول الطاعون الذي ضرب مدينة الجزائر خلال سنة 1785م سمّاها " الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون" والتي اعتمد في تأليفها على بعض الكتب المرجعية في الطب الإسلامي مثل كتاب "القانون" لابن سينا و"تذكرة داوود الأنطاكي"، إضافة لمفردات ابنالبطار حول الوباء والطاعون¹.

وإضافة إلى ذلك تضمنت كتابات الرحالة المغاربة خلال العهد العثماني نصوص توثق وجود الأوبئة سواء في بايلك الغرب أو في باقي المقاطعات الأخرى ففي رحلة أبي القاسم الزباني المشهورة بـ "الترجمانة الكبرى" إلى المشرق وأثناء مروره بتلمسان خلال سنة 1789م، ذكر أن أهل المدينة كثرت فيهم الوفيات جراء الطاعون الذي حل بهم وقال أنه لم يمر ببیت إلا ووجد أهله يدفنون أحد أمواتهم².

وخلال الرحلة العياشية الموسومة بـ "ماء الموائد" ذكر أبو سالم العياشي أنه خلال عودته من الحج سنة 1663م، وأثناء مروره على بسكرة والمناطق المحاذية لها تصادف مع الوباء الذي دمر المدينة وهو ما جعل ركب الحج المرافق له يرفض دخول المدينة خشية الإصابة بالوباء، وقد أشار إلى ذلك العياشي بقوله "...ونزلنا بسكرة ضحى يوم الإثنين وكان نزولنا خارج البلد من غربييه لأجل الوباء"³.

وعلى ذكر أهم المصادر الإسلامية نحاول ذكر بعضها كالآتي:

4-2- المؤلفات الإسلامية في مجال الأوبئة:

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق، ص423.

² أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً، تح وت: عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991، ص184.

³ أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفضلي المشرفي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006م، ص538.

تعددت المؤلفات التي تناولت موضوع الأوبئة في العالم الإسلامي لكن سنحاول عرض مجموعة منها وإن كانت أغلبها في الفترة الوسيطة لكنها توضح مدى اهتمام العلماء بالتصنيف في هذا المجال، وإن كانت مصبوغة بصبغة فقهية محضة.

وقد كان من هذه المصنفات ما هو مخطوط وما هو مطبوع كالآتي:

- المؤلفات المخطوطة:

- وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد لابن منظور القيسي (توفي 711هـ)
- حلّ الحبا لارتفاع الوباء، لولي الدين الملوي (توفي 774هـ)
- تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، لزكرياء بن محمد الأنصاري السبكي (توفي 926هـ)
- جواب في أحكام الطاعون، لأحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي (توفي 1156هـ)
- أجوبة في أحكام الطاعون، لمحمد بن أحمد بن محمد الحاج الرهوني الوزاني (توفي 1230هـ)¹.

هذه نماذج من المصنفات المخطوطة بحيث أن عدد المخطوطات في هذا الموضوع لا يمكن حصرها أما بالنسبة للمؤلفات التي تم تحقيقها وطبعها فنذكر منها:

- المؤلفات المطبوعة:

- بالنسبة للمؤلفات المطبوعة فهي كذلك كثيرة لذلك سنكتفي بعرض بعض النماذج كالآتي:
- مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، لمحمد بن أحمد التميمي المقدسي
- الطاعون وأحكامه، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي (توفي 785هـ)
- بذل الماعون في فضل الطاعون، للحافظ ابن حجر العسقلاني (توفي 862هـ)
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، لجلال الدين السيوطي (توفي في 911هـ)
- ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، لمرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي الحنبلي (توفي 1033هـ)².

¹ أمين بن محمد انقيرة، جهود العلماء في التصنيف في الطواعين والأوبئة، مجلة متون، مج 13، ع 2020، ص 111-112.

² نفسه، ص 113.

4-3- المؤلفات والدراسات المعاصرة:

نحاول من خلال عرض البحوث والدراسات المعاصرة في مجال الأوبئة والمجاعات عرض أهمها، مع أننا نضطر إلى تكرار العديد منها خصوصا أنه سبق الحديث عنها في المقدمة ويأتي في مقدمتها:

الدراسة التي قامت بها الباحثة فلة موساوي القشاعي والتي هي في الأصل أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر نوقشت في جامعة الجزائر، ثم طبعت على شكل كتاب سنة 2013م وقد جاءت بعنوان "الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1518-1830م)".

وتعتبر هذه الدراسة من بين أبرز الدراسات المعاصرة كونها تغطي تاريخ الأزمات الصحية والمعيشية طيلة فترة الوجود العثماني وما يميزها هو الكم المعتبر للوثائق الأرشيفية التي اعتمدت عليها الباحثة خاصة الوثائق الهامة الموجودة في مراكز الأرشيف الفرنسية، وبالتالي تعتبر هذه الدراسة إسهاما علميا يثري المكتبة التاريخية وإضافة هامة إلى رصيد الدراسات المتعلقة بالعهد العثماني¹.

إضافة إلى ذلك نجد الدراستين القيمتين للدكتور مصطفى خياطي (طبيب وباحث في تاريخ الطب...) فقد أنجز عملين الأول بعنوان "الأوبئة والمجاعات في الجزائر"، والثاني بعنوان "الطب والأطباء في الجزائر العثمانية" وقد تم ترجمة هذين البحثين إلى اللغة العربية كون الكاتب ألفهما باللغة الفرنسية².

كما أنه مؤخرا تم إنجاز العديد من البحوث الأكاديمية في هذا المجال وقد سبقت الإشارة لهم في مقدمة الدراسة ونذكر منهم:

-أطروحة الدكتوراه للباحث خير الدين سعيدي والتي جاءت بعنوان "المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني(1700-1830م) والتي نوقشت بجامعة 8 ماي 1945 بقالة سنة 2019م.

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص14.

² مصطفى خياطي، الطب والأطباء...، المرجع السابق، ص10.

-أطروحة الدكتوراه للباحث حفيان رشيد والمعنونة ب "الكوارث الطبيعية وآثارها في الجزائر خلال العهد العثماني" والمناقشة خلال الموسم 2020-2021م.
كما أن هناك العديد من الأطروحات رسائل الماجستير ومجموعة من المقالات التي تناولت موضوع الأزمات الصحية والمعيشية التي عانى منها المجتمع الجزائري خلال فترة الوجود العثماني .

4-4- المؤلفات الأجنبية:

تتميز المصنّفات الأجنبية التي تناولت الأزمات الصحية والمعيشية بكونها أكثر إلماما بالموضوع من حيث التفاصيل المذكورة والترتيب الكرونولوجي كما تعتبر هذه المصنّفات حجر الأساس لمعرفة الواقع الصحي والمعيشي للمجتمع كونها غنية بالمعطيات العديدة كما حاولت رصد التأثيرات المختلفة لهذه الأزمات وبالنسبة لبابلك الغرب لا توجد مؤلفات تركز على المنطقة بصفة خاصة بل على مختلف أنحاء الإيالة.

من بين هذه المصنّفات نذكر كتاب لأند رين بر بروجر "berbrugger andrien" وهو عبارة عن مذكرة تم اصدارها سنة 1848م حول التطور الكرونولوجي للطاعون الذي شهدته الجزائر خلال العهد العثماني وإلى غاية 1830.

وقد جاء هذا الكتاب بعنوان "mimoire sur la peste en Algérie" والذي هو ضمن كتاب بعنوان "exploration scientifique de l'algérie Pendant les années 1840, 1841, 1842,¹

كما نجد كتاب هام في هذا السياق وهو للكاتب قويون "Guyon" خلال سنة (1855م) والذي جاء بعنوان "histoire chronologique des épidémies du nord de l'afrique" ويعتبر هذا الكتاب مادة مصدرية لا غنى عنها في معرفة التطور التاريخي للأوبئة منذ

¹ حفيان رشيد، قراءة في مخطوط...، المرجع السابق، ص 609.

العصور القديمة وكذلك في الفترة المدروسة سواء في الجزائر أو في باقي المنطقة المغاربية وقد تحدث قويون عن أسباب حصول هذه الأوبئة ومدى تأثيرها على بلدان شمال إفريقيا وخاصة الإيالة الجزائرية.

كما يمكن أن نقف على كتاب آخر للكاتب والسين استرهazy "walsinEsterhazy" والذي يضم معلومات قيمة في هذا الجانب رغم انه يتحدث عن الوجود العثماني بالجزائر وقد جاء بعنوان "De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger" إضافة إلى العديد من المراجع والمقالات التي عالجت هذا الموضوع والتي تحتوي على تفاصيل هامة حول مختلف الأمراض والأوبئة التي ضربت الجزائر خلال العهد العثماني. ومن بين أهم المراجع التي تؤرخ للأوبئة في الجزائر العثمانية أطروحة الدكتوراه لـ"جين مارشيكا" Jean marchika والتي اعتمدنا عليها بصفة متكررة في كافة أطوار بحثنا، و قد كانت هذه الأطروحة بعنوان:

septentrionale, histoire de la peste en algérie la peste en afrique"
"de

(1363-1830) وقد نوقشت هذه الأطروحة بجامعة الجزائر سنة 1927.

وفي نفس السياق نجد أطروحة محمد بن العربي "mohamed ben larbey" والمعنونة بـ"la médecine arabe en algérie" وهي أطروحة دكتوراه في الطب تحصل عليها الباحث سنة 1884م والتي تناقش ممارسة الطب ووضعيته عموما في الجزائر خلال العهد العثماني¹

إضافة إلى مجموعة من المقالات ومنها مقال بعنوان "notice sur le bey d'oran"

mohamed el kebir للكاتب "قورقوس" "gorguos²"

إضافة إلى مقال للوسيت فالنسي " بعنوان:

¹ شخوم سعدي، قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، مج:1، ع1، جوان، 2015، ص272.

²-Gorguos, notice sur le bey d'Oran Mohamed el kebir"R .A.2 année, N° 8, p223.

Tunisie et en méditerranée "calamités démographiques en "valensi Lucette,
orientaleaux 18 et 19 siècle¹.

¹-valensi Lucette, calamités démographiques en "Tunisie et en méditerranée orientale aux 18 et 19 siècle,in annales economies, sociétés, civilisations, 24°,année,n6,1969,p p 1540-1561.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

- 1- الآثار الاجتماعية والنفسية :
- 2- الآثار الديمغرافية:
- 3- الآثار الاقتصادية :
- 4- الانعكاسات على المجال العسكري :
- 5- الأزمات الصحية والمعيشية والدراسات التاريخية :
- 6-

بعد التطرق إلى التطور الكرونولوجي للمجاعات والأوبئة وعرض أهم المسببات الطبيعية والبشرية التي أدت إلى حصولها، وكذا ردود الفعل في مواجهتها، نحاول من خلال هذا الفصل استعراض تداعيات هذه الأزمات على البيئة الاجتماعية بما فيها الوضع الديموغرافي والحياة الاقتصادية في بايلك الغرب الجزائري .

مع الإشارة إلى أنه في غياب المعلومات الموثقة في المصادر لجأنا إلى عرض بعض الأمثلة من الجهات الأخرى خصوصا وأن المجتمع الجزائري تجمعه العديد من الخصائص المشتركة.

1- الآثار الاجتماعية:

لقد تعددت تجليات الأزمات الصحية والغذائية التي مرّ بها المجتمع الجزائري خلال الفترة الممتدة (1700-1830)، ونسعى من خلال التطرق إلى الآثار الاجتماعية معالجة العديد من مظاهر هذا التأثير والذي يفوق من دون شك الآثار التي تخلفها الحروب و النزاعات المسلحة ، لذلك سنعتمد على المصادر المحلية التي أعطت لنا العديد من الإشارات الهامة ¹. وقد أحدثت هذه الأزمات انهيارا ديمغرافيا وهشاشة في البنية السكانية وتفككا في وحدة وتماسك المجتمع بكل مكوناته، وبقيت آثارها النفسية لعديد السنوات، كما أفرزت هذه الأوضاع سلوكيات متباينة للمجتمع الجزائري.

وإذا كنا قد أشرنا إلى التعامل الإيجابي في بعض الأحيان والذي يتمثل في التكافل والتضامن الاجتماعي والذي يعتبر من المظاهر الإيجابية التي تعكس روح الأخوة والتضامن والتي هي من صميم التعاليم الإسلامية وهو ما جعل القوى الفاعلة في المجتمع تتنافس على أعمال البر والإحسان.

¹ - خير الدين سعيدي ، المرجع السابق، ص 305.

نحاول التطرق إلى الآثار السلبية ومظاهرها المختلفة، لذلك سنتناول التأثيرات الاجتماعية من العديد من الزوايا كالآتي:

1-1- الأزمات في الذاكرة الجماعية

ارتسمت في الذاكرة الجماعية للسكان الأزمات حتى علقت في الأذهان تسميات اتفق عليها أفراد المجتمع للتأريخ للأزمة في مختلف مناطق الإيالة، وبالنسبة لبابلك الغرب اشتهرت العديد من الأزمات بتسميات مختلفة كوباء 1794م الذي اشتهر باسم "حبوبة عثمان" نظرا لوفاة أحد أبناء عائلة الباي محمد الكبير ويسمى عثمان¹.

كما عرف وباء سنة 1796م باسم "حبوبة الأمجاد" أو طاعون الأمجاد والذي قضى على أسرة الأمجاد المعروفة في الجهة الغربية والتي كانت من بين الأسر الغنية والكثيرة العدد في المنطقة²، وهذا ما يبين تفكك النسيج الاجتماعي الذي أفرزته هذه الأزمات.

وقد أدت المجاعات ونقص المواد الغذائية إلى التوتر والنزاع في عديد المرات مثل ما حدث في بابلك الغرب الجزائري خلال بداية القرن التاسع عشر وذلك من خلال تحريض العرب ضد العثمانيين وهو ما تجسّد من خلال ثورة "ابن الشريف الدرقاي" في الغرب الجزائري، وقد أظهرت هذه الفتنة أن الأزمة الغذائية كانت عاملا حاسما في ظهور الفرقة والتفكك في أواصر المجتمع واستمرار الصراع والاقتتال بعد اتهام كل طرف للآخر باحتكار الغذاء في عديد المدن في البابلك³.

1-2- الأزمات في الشعر الشعبي :

لقد تركت الأزمات الصحيّة والغذائيّة أثارا نفسية سلبية على أفراد المجتمع وحتى المؤرخين والأدباء الذين عايشوا الأحداث وتتجلى هذه التأثيرات في النصوص التي تصف هذه الكوارث سواء كانت شعرا أو نثرا.

¹J.L.G .Guyon,opcit ,p357.

²Ibid,p348.

³خير الدين سعيدي،المرجع السابق،ص313.

وقد المصادر المحليّة الكثير من الانطباعات لدى الأدباء والشعراء ومنها تلك الأبيات التي كان يرددّها العامة كالآتي :

القمحُ يا باهي اللون من شَبَعَتِكَ لا زِيَادَة
أنتَ قوتُ كُلِّ مِسْكِينٍ بِكَ الصَّلَاةُ وَالْعِبَادَة

وكذلك نفس التفاعل لدى اليهود مع الأزمات الغذائية بقولهم:

شُوفُوا هَذَا الْعَامَ الْكَبِيرِ وَالْعِبَادَ مَنْكِدِينَ
رَيْتَ الْبُرْمَةَ وَالْكَسْكَاسَ وَالْبَرِيقَ مَسْوَدِينَ
أَنْغَرِ عَلَيْنَا هَا جِبْرِيلُ¹

كما ساهمت المجاعة الشديدة و غلاء الأسعار في قسنطينة أواخر العهد العثماني في تفاعل المجتمع معها من خلال الأبيات التالية:

جَلْ جَلَّالُهُ ذَا الْعَامِ كَادَ الرَّجَالَة

رَيْتَ الْهَجَالَة تَبْكِي بِالْجُوعِ

يَا خَالِقِي حَنِّ عَلَيْنَا هَذَا الْعَامَ الْمَشْؤُومَ خَلَّفَ الْخَلَائِقَ تَهُومَ²

ومن خلال هذه الأبيات نستنتج أنّ الأزمات الصحيّة والغذائية تعكس مدى تأثير هذه الأزمات على سلوكيات وأحاسيس المجتمع المبرزة لخطورتها وبقائها في ذاكرة المجتمع خلال العهد العثماني.

3-1- الأزمات في المصادر المحليّة :

بالرغم من تعرض الكتابات المحلية للأزمات والتأريخ لها إلا أنّها كانت تكتفي بوصف الأحداث بعبارات تعكس مدى قوة تأثير الأوبئة والمجاعات لكن دون التعرض لحجم

¹صالح العنتري،المصدر السابق،ص ص 43-44.

² نفسه،ص45.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بابلك الغرب

الخسائر ومدى تأثيرها أو إعطاء أرقام لأعداد الضحايا، وقد كانت عباراتهم تعكس مشاعر الخوف والرعب، كما تعكس حجم التأثيرات التي تتركها الأزمات في نفسية هؤلاء المؤرخين¹.

عند اطلاعنا على مجموعة من المصادر المحلية سواء المتعلقة ببابلك الغرب أو مختلف مناطق الإيالة سجلنا العديد من العبارات المتكررة في مختلف المناسبات التي يتم التكلم فيها عن الأوبئة أو المجاعات لذلك سنكتفي بذكر بعض الأمثلة كالآتي:

بالنسبة لبابلك الغرب نذكر مسلم بن عبد القادر في كتابه "تاريخبايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر" أو الأغا بن عودة المزارى في "طلوع سعد السعود"، أو بالنسبة للإيالة كالعنتري صاحب كتاب "مجاعات قسنطينة" أو الشريف الزهار في مؤلفه "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار"، ومن بين الأمثلة والعبارات الدالة على ذلك نذكر ما يلي :

- "وباء كبير هلك فيه الكثير من الخلق"
- "وقع غلاء عظيم وقحط فيه الناس"²
- "وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم"
- "أخلى البلاد وأفنى العباد"
- "وقع في عهد هذا الباى قحط شديد"³
- خلت الدور وعمرت القبور.
- "أخلى البلاد وأفنى العباد".

وقد استعمل المجتمع الجزائري مصطلحات من اللهجة المحلية للدلالة على الوباء أو المجاعة مثل "الحبوبة"، "عام الشر" وغيرها...

ومن بين الأزمات الغذائية التي أفرزت سلوكا اجتماعيا غريبا المجاعة التي ضربت بابلك الغرب خلال سنة 1792م ذلك التعبير الذي يدل على بشاعتها و التي حدثت تزامنا مع تولي الباى محمد الكبير الحكم بقول ابن يوسف الزيانى "وحدث بأول مملكته بالمعسكر

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص26.

² الأغا بن عودة المزارى، المصدر السابق، ص361.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص22.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

مسغبة عظيمة،هلك بها أناس كثيرون،إلى أن أكلت فيها الميتة والدم ولحم الإنسان والخنزير".¹

وقد أشارت اليها المصادر المحلية كمسلم بن عبد القادر وابن يوسف الزباني وغيرهم، أو الأجنبية كـ "غويون" Goyun، و"مارشيك" Marchika، و"استرهازي" Esterhazy وغيرهم.²

ومن بين التسميات التي بقيت راسخة في الذاكرة الجماعية لمجتمع بايلك الغرب الطاعون خلال سنة 1794 م الذي جعل المدينة خاوية على عروشها وقد أطلق عليه "طاعون عثمان" و عام "حبوبة عثمان" نسبة لعثمان ابن الباي محمّد الكبير الذي توفي نتيجة لهذا الوباء³.. وبعد التطرق الى الجانب الاجتماعي نخرج على الانعكاسات الديمغرافية للأزمات الصحة والغذائية من خلال ما يلي :

2-الآثار الديمغرافية:

تعتبر الآثار الديمغرافية للمجاعات والأوبئة من بين أخطر التجليات للكوارث والأزمات،وقبل التطرق للانعكاسات الديموغرافية ننوه إلى أن هذا المصطلح مصطلح حديث وشامل يقصد به "علم السكان" وهو دراسة لمجموعة من خصائصهم الكمية مثل كثافة السكان وتوزيعهم وكذلك النوعية ومنها العوامل الاجتماعية وسنستعرض هنا جزئيتين هامتين للانعكاسات الديمغرافية تتمثل فيما يلي :

¹ محمد بن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص 269.

²-Walsun Esterhazy,op.cit, p 189.

بالرغم من تناقل المصادر المحلية والأجنبية لقضية أكل لحم البشر وشرب الدم...،نرى أن هذا السلوك الذي ينكره الطبع البشري وترفضه تعاليم الدين الإسلامي لا يمكن أن يصدر من المجتمع الجزائري الذي لم يتعود على مر التاريخ على مثل هذه السلوكيات المنافية للفطرة الإنسانية، وعليه نرى أن ذكر هذه القضية فيه الكثير من المبالغة والتهويل من شدّة المجاعة التي ضربت المنطقة وما قد يؤكد وجهة نظري هو أن مثل هذا السلوك تاريخيا لم يقع كردة فعل خلال أزمات الجوع السابقة واللاحقة لهذه الأزمة .

³-j,I,Goyun,op.cit,p357..

1-2- :التداعيات على التعداد السكاني:

إنّ أيّ دراسة ديموغرافية تحتاج إلى معطيات إحصائية واضحة لذلك نشير إلى وجود صعوبة في استقصاء المعلومات وذلك لغياب التفاصيل الواضحة والمعطيات العددية¹. هذا إضافة إلى أنّ المصادر المحلية لم تكن تذكر سوى لفظ الوباء أو الطاعون مع حصول أيّ مرض فتاك سواء كان مرضاً وبائياً أو حمى وبائية تتميز بالانتشار وحصد عدد كبير من الأرواح².

كما وردت المعلومات دون ذكر تفاصيل حول عدد الوفيات كما ذكرنا سابقاً مثل "وباء كبير هلك فيه الكثير من الخلق"، "وباء حصد الكثير من الأرواح"، "الطاعون الجارف"...، وهذا ما يصعب استقصاء المعطيات العددية الواضحة .

وما يمكن الإشارة إليه هو أنّ المعطيات التي استند إليها المؤرخون للأزمات ونتائجها المرعبة حسب ما أشارت إليه الباحثة فلة القشاعي تتمثل في مصادر عالجت النقص الفادح في المعطيات الديموغرافية وقد كانت كالاتي:

-سجلات البايك الخاصة بالضرائب

-تقايد الوفيات

-الكتابات على شواهد القبور

والجدير بالذكر أنّ سجلات البايك المتعلقة بالضرائب تضم قوائم القبائل والأعراش التي تدفع الضرائب للسلطة العثمانية وبالتالي فهي لا تشمل مختلف التشكيلات الاجتماعية خصوصاً وأن العديد من القبائل لم تكن خاضعة للسلطة وبالتالي فإن الإحصائيات لم تشمل العدد الإجمالي للسكان³.

لذلك سنحاول ترتيب الأزمات كرونولوجياً مع ما توفر لدينا من أرقام خلال الفترة المتأخرة من القرن الثامن عشر كالاتي:

¹-خالد بالعربي، المرجع السابق، ص19، 29.

²-الحسين الفرقان، المرجع السابق، ص310.

³ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص451.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

خلال سنة 1700م كان من بين الأسباب الرئيسية لعودة وباء الطاعون إلى الجزائر انتشار الجراد في كافة المناطق وما زاد الأمر تعقيدا هو طول مدة بقاءه وقد تحدث مارشيكاً " marchika " عن تشخيص أول حالة إصابة تمثلت أعراضها في التدرج في ارتفاع درجات حرارة الجسم¹.

خلال سنة 1701م تمّ تسجيل عدد معتبر من الوفيات في كامل الإيالة بحيث بلغ أربعة آلاف وخمسمائة ضحية، وخلال السنة الموالية استمر الوباء وما يؤكد انتشاره في بايلك الغرب هو حمل المساجين الإسبان للوباء بحيث قدموا من وهران إلى مدينة الجزائر حاملين معهم الوباء².

وبالنسبة لبايلك الغرب لا نجد إشارات أو أرقام واضحة إلى غاية 1738م وهي السنة التي توفي فيها عدد معتبر من السكان في بايلك الغرب ومختلف المناطق الأخرى، والتي شهدت أيضا وفاة الباي يوسف ولد بوشلاغم متأثرا بالوباء³.

خلال سنة 1741م زحف انتشار الوباء في مدينة مستغانم لكن لا توجد معطيات حول تأثيراته عكس مدينة الجزائر التي كان يموت خلالها حوالي 40 إلى 50 ضحية في اليوم مع حلول شهر جوان من هذه السنة قبل أن يتراجع مع بداية شهر سبتمبر⁴.

أثناء الفترة الممتدة ما بين 1742م و إلى غاية 1778م لا يوجد معلومات واضحة تؤكد تضرر بايلك الغرب جراء موجات الوباء التي ضربت مدينة الجزائر أو المناطق الشرقية، فمثلا خلف وباء الطاعون أربعة آلاف قتيل خلال سنة 1752م وكذلك الشأن بالنسبة لسنوات 1753م و 1756م ثم بدأت موجة الأوبئة تتناقص لتعود أكثر شدة مع سنة 1762م والذي رافقته مجاعة كبيرة ضربت مدينة الجزائر⁵.

¹Jean Marchika,op.cit,p70.

²مصطفى خياطي،الأوبئة والمجاعات...،المرجع السابق،ص46.

³Jean marchika,op.cit,p78.

⁴مصطفى خياطي،الأوبئة والمجاعات...،المرجع نفسه،ص48.

⁵De Grammont.op.cit,p314.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

خلال الفترة الممتدة ما بين 1764م و1778م كانت فترة خمود نسبي للوباء ليعود أكثر شدة وتأثيراً مع سنة 1778م.

يذكر "مارشيك" Marchika أن الوباء كان انتشاره بسرعة رهيبية وذلك خلال سنتي 1778 و1779 في بايلك الغرب لكنه لم يذكر أي تفاصيل أو أرقام حول عدد الضحايا أو حجم الخسائر¹.

كما يتحدث عن نفس هذه الفترة "استرهازي" Esterhazy الذي يذكر أنها تزامنت مع تولي الباي محمد الكبير الإيالة الغربية حيث قضت المجاعة على عدد كبير من الضحايا². وقد سبق هذا الوباء مجاعة خلال فترة تولي خليل باي الجهة الغربية وقد أشار إليه مسلم بن عبد القادر بقوله ((وقع في عهد هذا الباي قحط شديد ودام حتى منتصف 1777م ،ثم زال وأخصب الناس))³.

خلال عام 1786 حلّ الوباء بوهراة ومعسكر وقد سبقت هذا الوباء مجاعة شهدتها وهران وضواحيها حتى امتدت إلى معسكر⁴، ويذكر أن الباي عندما علم بحلول الوباء خرج هو وحاشيته خارج المدينة خوفاً من الوباء⁵.

أثناء مرور الرحالة الزباني على مدينة تلمسان سنة 1789م أشار إلى وباء كبير حلّ بها وأنه خرج فارّاً منها لكنه أشار إلى كثرة الضحايا بقوله ((فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم))⁶، وهذا يدل على أنّ الوباء خلف عدداً كبيراً من الضحايا.

خلال شهر أكتوبر من عام 1790 وقع بوهراة زلزال كبير انهارت على إثره المدينة وضواحيها وقد استمر عبر هزّات متكرّرة إلى غاية 22 نوفمبر وقد قدر عدد ضحايا هذا الزلزال حوالي 3000 ضحية¹.

¹-Jean Marchika,op.cit , p108 .

²-أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق ص 144.

³-مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق ص22.

⁴-ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص90.

⁵-مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، المرجع السابق، ص54.

⁶-أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برّا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1992، ص184.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

وخلال سنتي 1790 و1791م تشير لوسيت فالنسي إلى أن الوباء قد دمر مدينة تلمسان دون الإشارة إلى أعداد الضحايا²

بعد هذا الزلزال عرفت مدينة وهران خلال سنة 1792 مجاعة كبيرة أشارت إليها المصادر المحلية بوصفها لشدتها بأن وصل الأمر بالناس من خلالها إلى أكل لحوم البشر والخنازير وشرب الدم³.

وبالرغم من عدم وجود أرقام حول هذه المجاعة التي حصدت عددا هائلا من الضحايا إلا أنها قد أحدثت نزيفا ديموغرافيا خطيرا على البيئة الاجتماعية في المنطقة .

ثم ضرب الطاعون مدينة وهران خلال سنة 1794 م الذي جعل المدينة خاوية على عروشها وقد أطلق عليه "طاعون عثمان" وقد سبقت الإشارة إليه ونلاحظ عدم وجود إحصائيات حول عدد الموتى لكن بما أنه ترك المدينة خاوية فالأكيد أنه قد قضى على عدد هائل من ساكنة مدينة وهران⁴.

مع استمرار هذه الموجات الوبائية أبدى القناصل الأوروبيين بالمغرب الأقصى انزعاجهم وقلقهم من هذه الأوضاع وذلك لوجود اتصالات بحرية بين وهران والمغرب الأقصى⁵.

وما يؤكد ذلك هو أنّ هؤلاء القناصل بطنجة المغربية اقترحوا خلال سنة 1793 على السلطان المغربي مولاي سليمان تطبيق الحجر الصحي على الحدود الشرقية مع الجزائر، كما تمّ تطبيق الحجر خلال سنة 1797 على جميع السفن القادمة من وهران وشلّ جميع المواصلات مع الحدود⁶.

¹WalsinEsterhazy.op.cit, p189.

² Lucette valensi ,op.cit, P1554

³WalsinEsterhazy,op,cit,p 189.

⁴-j,I,Goyun,op.cit,p357..

⁵-مصطفى خياطي، (2013)، الأوبئة والمجاعات. ..، المرجع السابق، ص56.

⁶-محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، ص ص83-85.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

خلال سنة 1798 اجتاحت الطاعون مدينة تلمسان ثم امتدّ إلى المغرب إلى غاية 1804، ثم عاد مجدداً إلى وهران في 23 مارس عام 1799 من خلال وفاة أحد الحجاج الأربعة عشر القادمين على متن سفينة تركية بعد وصولها في 17 مارس¹.

وقد أكد وجود هذا الوباء أحد الأطباء المحليين وقد أشارت المصادر الى أن الوفيات في هذا الطاعون كانت تنتشر بشكل رهيب بحيث تسجل في اليوم 15 ضحية ثم ارتفعت وتيرتها وامتدت الى المدن المجاورة، تأقدمات ومعسكر وتلمسان وقد اختفى هذا الوباء في العشرة أيام الأولى من شهر جوان².

وإذا ما أردنا إجراء عملية حسابية بسيطة فإن معدل 15 ضحية في اليوم يقضي على أكثر من ألف ضحية خلال الفترة السالفة الذكر .

ما يمكن استنتاجه من المعطيات السابقة هو أنّ الوباء خلال 1786 و 1787 والتي تتزامن مع نهاية القرن 18 كان من أشدّ الأوبئة خلال العهد العثماني وأكثرها فتكا بالسكان.

والذي يؤكد حجم هذه الخسائر هو ما أشار إليه خير الدين سعيدي حول إحصائيات ضحايا الطاعون في كامل الإيالة الجزائرية حيث ذكر رقم 24813 ضحية خلال سنة 1786م و 17048 ضحية خلال 1787م، ثمّ 13200 ضحية سنة 1797 وهذا ما يبين مدى الانهيار الديموغرافي الذي تعرّضت له الجزائر خلال هذه السنوات³.

استمرت موجات ظهور الطاعون في مختلف الإيالة وقد شهدت وهران ظهور وباء الطاعون، ثم وباء الجدري (variole) خلال سنة 1803م والذي انتشر في مختلف مناطق شمال إفريقيا⁴.

¹ J.I.Goyun,op.cit,p359.

²-Jean Marchika,op cit,p145.

³-Ibid , p148.

⁴J.I.Goyun,op.cit,p364.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

بعد هذا الوباء شهدت مختلف مناطق الإيالة مجاعة رهيبية خاصة في المناطق الشرقية للبلاد وخاصة سنة 1805م، ثم شهدت الجزائر فترة خمود نسبي لموجات الطاعون والمجاعات إلى غاية 1815م¹.

يعد وباء 1817م من أخطر الأوبئة تأثيرا في بايلك الغرب، فخلال هذا الوباء كان الناس في مدينة وهران يموتون في الشوارع². وما يؤكد ذلك هو ما ذكره قويون "Goyun" بأن عدد الضحايا بوهران بلغ أكثر من 1500 ضحية خلال هذا الوباء ولم يتوقف انتشاره إلى غاية انتقاله إلى المغرب³.

وخلال هذا الوباء زاد تفاقم الكارثة من خلال هروب سكان مدينة وهران إلى المدن المجاورة مثل مستغانم ومعسكر وهو الأمر الذي سرّع من انتشار الوباء بشكل كبير من خلال سقوط أكثر من 1400 ضحية في مدينة معسكر وحدها⁴.

استمر الوباء طيلة هذه المدة ويذكر مارشيك أنّه خلال فترة نشاطه بالجزائر منذ شهر جويلية أصبح عدد الضحايا يفوقون معدل 50 ضحية في اليوم⁵.

وقد استمر نشاط الوباء في مدينة وهران وكافة أرجاء الجزائر خلال سنة 1818م و1819م وإلى غاية 1822م⁶.

ثم شهد بايلك الغرب استراحة من الأزمات نوعا ما منذ سنة 1827م و إلى غاية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

أمّا بالنسبة لبايلك الغرب فإننا وفي ظلّ ما توفّر من معلومات نقف على إحصاء عدد السكّان بأهمّ المدن مع بداية الاحتلال الفرنسي، خلال الجدول كالاتي :

¹ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص132.

² ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830م) دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ط3، ص53.

³ J.I.Goyun, op. cit, p382.

⁴ خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص271.

⁵ Jean marchika, op. cit, p153.

⁶ مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص60.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بابلك الغرب

المدينة	عدد السكان
تلمسان	لم يتجاوز 15000 نسمة
وهران	10000 نسمة
معسكر	6000 نسمة
مستغانم	4000 نسمة
مازونة	2600 نسمة

جدول يوضح عدد سكان بعض مدن بابلك الغرب الجزائري مع بداية الاحتلال

الفرنسي 1830م¹.

- ولذلك نحاول إجراء مقارنة بسيطة بين معطيات هذا الجدول مع عدد سكان هذه المدن في بداية القرن الثامن عشر لمقارنتها مع معطيات الجدول كآلاتي:
- سكان مستغانم بلغ تعدادهم 12000 ألف نسمة ليصبح 4000 آلاف فقط
 - سكان وهران تناقص عددهم من 15000 ألف نسمة إلى 10000 آلاف فقط رغم أن المدينة أصبحت عاصمة لبابلك الغرب بعد تحريرها سنة 1792م.
 - سكان تلمسان تناقص عددهم من 2500 نسمة إلى 1500 نسمة فقط.
 - أما مدينتي معسكر ومازونة فلم تشهد تغيرا كبيرا في التعداد السكاني².

¹ محمد الصديق بولغيث، حمدادو بن عمر، المجاعات والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديموغرافي ببابلك الغرب الجزائري في أواخر القرن الثامن عشر، مجلة عصور الجديدة، مج: 11، ع: 1، مارس 2021م، ص: 371.

² نفسه، ص: 372.

من خلال المعطيات المتوفرة في هذا الجدول حول عدد السكّان في بداية 1830 ومقارنتها مع بداية القرن 18 نلاحظ تناقصا واضمحلالاً واضحاً في عدد السكّان، والتفسير المنطقي لهذا الخلل في نمو السكّان حسب اعتقادنا يعود إلى اشتداد وطأة الأوبئة والمجاعات وتعاقبها بصفة تكرارية خلال فترة وجيزة كما أشرنا إلى ذلك سابقا التي أودت بحياة الكثير من السكان طيلة هذه الفترة.

وهو ما يؤكد أن تكرار ظهور الأزمات خلال هذه الفترة كان عاملا من عوامل الهشاشة البنيوية في العنصر البشري.

2-2- التداعيات على الجوانب الديمغرافية الأخرى:

إنّ تأثيرات المجاعات والأوبئة على الجانب الديموغرافي لم تقتصر على التعداد السكاني بل تعدّت آثارها إلى نشاطات المجتمع الجزائري بصفة عامة لذلك سنتعرض تأثيرها على الجوانب الديموغرافية الأخرى .

ففي الجانب الثقافي

لقد فقدت المنطقة الغربية خلال هذه الأزمات الكثير من الشخصيات العلمية والدينية كالشيخ عبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زرفة وأخوه الشيخ الهاشمي والفقير مصطفى بن عبد الله مؤلف "الرسالة القمرية"¹.

كما مات الحافظ أبو راس الناصر متأثراً بالوباء سنة 1822 م². وهذا ما سيؤدّي حتما إلى تراجع الإنتاج الفكري والأدبي وتقلص النشاط الثقافي بصفة عامة .

إنّ تدهور الأوضاع الصحية والمعيشية أدّى إلى تفكيك البنية الاجتماعية فقد تحدثت العديد من المصادر المحلية والأجنبية الى اندثار أسر وقبائل بكاملها، مثل ما وقع مع قبيلة الأمجاد التي قضى عليها طاعون 1786 حتى سمّي هذا الطاعون بـ"طاعون الأمجاد أو "حبوبة الأمجاد"¹.

¹ -ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 92.

² -مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 26.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بابلك الغرب

لقد تعدّت آثار هذه الأزمات إلى الجانب الاقتصادي من خلال تقلص النشاط الحرفي والصنّاعي فقد انقرضت الكثير من الحرف والمهن إضافة إلى هجرة النّاس لأراضيهم والتخليّ عن النّشاطات الفلاحية هروبا من هذه الأوضاع ما أدّى إلى تدهور الإنتاج الزراعي بصفة معتبرة².

يضاف إلى كلّ هذا ما خلفته بعض الثورات والتمردات المحليّة من هدر ديموغرافي كبير ومثال ذلك في بابلك الغرب هي الثورة الدرقاويّة على السلطة العثمانيّة خلال 1805 والتي حصدت الكثير من الأرواح واستنزفت قدرات وطاقات السلطة وأرهقتها دون تحقيق نتائج لكلا الطرفين³.

يضاف إلى هذا ما أفرزته هذه الأزمات من ظواهر اجتماعية فقد شهدت المنطقة هجرة السكّان لأراضيهم هروبا من الأوبئة إلى مناطق أخرى لم تصلها ولو كانت بعيدة ،وقد أشار إلى ذلك غويون " Goyun " الذي نبّه إلى أن ردة فعل الناس على إشتداد الوباء ببابلك الغرب بالهروب إلى الجبال قد كانت سببا في ارتفاع عدد الضحايا بحكم أن الناس كانوا يلجئون إلى المغارات والكهوف التي لم تكن معرضة للتهوية والتي تؤدي حتما للموت⁴.

وقد أدت هجرة الكثير من الأسر وتخليها عن ممتلكاتها إلى الفقر والحاجة لدى كثير من السكان، وبتخلي الناس عن أراضيهم تأثّر النشاط الزراعي وذلك بتراجع الإنتاج وتقلص المساحات المزروعة ما أدى إلى اللّجوء إلى الاستيراد كحل مستعجل في ظل هذه الأزمة كما استغلّ هذا الظرف العديد من الانتهازيين لرفع الأسعار و ممارسة الاحتكار وهو ما سنشير إليه في التجليات الاقتصادية .

¹-يومدين دباب، المرجع السابق، ص148

²-غلة القشاعي، المرجع السابق، ص476.

³-عبد القادر صحراوي، ثورة الطريقة الدرقاوية في الجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد15-2017، 16، ص465.

⁴J,I,Goyun,op.cit,p348.

3- الآثار الاقتصادية:

اختلفت وتعددت التأثيرات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة على الإيالة الجزائرية عموما وخير ما يمكن أن يستدل به لهذه الجزئية هو قول "حمدان بن عثمان خوجة" في وصف آثار الأزمات قوله >>... فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحسنة فأفقرت معالم البلاد وتشوهت أحوال العباد واضمحل العلم وذووا الاستعداد وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران و الفلوات و خلف جميعهم بعد العناء و التعب خلف أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات¹...<<

لذلك سنحاول في دراسة التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصحية والمعيشية رصد التأثيرات المتنوعة على الإيالة عموما كون بايلك الغرب هو جزء منها كما أننا لم نجد معلومات كافية تركز على هذا الحيز الجغرافي.

1-1 تدهور الحركة التجارية :

من بين المظاهر السلبية للمجاعات والأوبئة تراجع النشاط التجاري وتوقفه كلياً في بعض المرات على المستوى المحلي أو الخارجي، فإضافة إلى تدهور التجارة الداخلية سواء في المدن أو الأرياف شهدت الحركة التجارية مع مختلف الدول تراجعا ملحوظا في فترة ظهور الأوبئة والمجاعات.

وترتبط التجارة الخارجية للجزائر بالموقع الجغرافي الذي فرض على السلطة الحاكمة إقامة مبادلات مع دول حوض البحر المتوسط وكذلك مع بلدان المشرق الإسلامي ودول الجوار كالمغرب وتونس وكذلك مع بلاد السودان الغربي.

وقد عرفت المبادلات التجارية مع البلدان الأوروبية حركية نشيطة تتوقف دائما في حالات ظهور الأوبئة، فمثلا تم تعليق المبادلات التجارية بين الجزائر وفرنسا خلال سنة 1718م، كما

¹ - حمدان خوجة، اتحاف المنصفين ... ، المصدر السابق ص 04.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

تم إغلاق مدينة مارسيليا برا وبحرا بسبب ظهور الوباء سنة 1720م ولم يتم رفعه إلا خلال جوان من سنة 1723م¹.

وسنحاول توضيح التأثيرات المباشرة للتجارة بين مدينة مارسيليا والجزائر بحيث تراجعت بصفة ملحوظة، وبالمقابل كانت الإيالة الجزائرية تعاني من فترة جفاف ما بين سنتي: 1718م و1724م خلال الجدول الآتي:

السنوات	عدد السفن المحملة بالقمح من الجزائر إلى مدينة مارسيليا
1718-1719م	14
1719-1720م	17
1720-1721م	02
1721-1722م	07
1722-1723م	18
1723-1724م	30

جدول يوضح عدد السفن المحملة بالقمح باتجاه مدينة مارسيليا ما بين 1718 و1724م²

كما أشرنا من قبل إلى ظهور الطاعون بمارسيليا وفي المقابل حصول القحط والجفاف ما أدى إلى تدهور الحركة التجارية بين البلدين.

- خلال سنة 1720 لم يتم تحميل سوى سفينتين ما يؤكد مدى شدة الطاعون بمرسيليا، والجفاف الذي تعرضت له الجزائر وهو ما أدى إلى قرار غلقها.

¹ رشيد حفيان، الكوارث الطبيعية...، المرجع السابق، ص185.

² رشيد حفيان، الكوارث الطبيعية...، المرجع السابق، ص185.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

- خلال سنتي 1723 و1724م شهدت زيادة معتبرة لعدد السفن المحملة بالقمح وهو ما يمكن تفسيره بعودة سنوات العافية وتحسّن الأوضاع الصحية لمرسيليا والمناخية للإيالة الجزائرية.

وكذلك سنة 1741م حيث تشير إحدى المراسلات القنصلية التي بعث بها القنصل الفرنسي بالجزائر إلى ضرورة تعليق المبادلات التجارية بين البلدين بسبب ارتفاع النشاط الوبائي في كلا البلدين¹.

كذلك الحال بالنسبة لسنة 1752م فقد توقفت المبادلات بين الجزائر والدول الأوروبية، وقد طالب الكثير من القناصل الأوروبيين بلدانهم بإلزام السلطة العثمانية بإبعاد السفن الجزائرية عن سفن بلدانهم مهما كانت الأسباب خشية انتقال الوباء إلى السفن الأوروبية².

ومن بين السنوات التي عرفت ركودا كبيرا في مجال التصدير هو وباء 1817 الذي ضرب بايلك الغرب ومختلف أنحاء الجزائر بحيث تقلص تصدير الحبوب و الزيت والجلود والصوف كما انخفض عدد الحرفيين بشكل كبير³.

وعليه يمكن القول بأنّ انتشار الأوبئة كان عاملا رئيسيا في شلّ الحركة التجارية بين الجزائر ومختلف المتعاملين معها.

-نقص اليد العاملة :

تميز المجتمع الجزائري بتنوع نشاطه الصناعي والحرفي، وذلك بالإعتماد على المواد الأولية المتوفرة في كل منطقة ما جعل كل منطقة تشتهر بصناعاتها سواء في الأرياف أو في المدن وقد اختلفت وضعية الصناعات من حيث نوعيتها أو من خلال تنظيماتها وخصوصا بالمدن التي كانت أكثر تنظيما .

¹ خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص280.

² J.L.G.Guyon ,opcit ,p383.

³ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص445.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

عرفت الصناعات الحرفية انتشارا واسعا في مختلف مناطق الإيالة كالصناعات النسيجية،والحريرية والجلدية والمعدنية والفخارية وغيرها وما يمكن ملاحظته هو أن الحرفيين في المدن الكبرى كانوا أكثر تنظيما عكس ما كانت عليه الأرياف¹.

ومن صور التأثير السلبي للمجاعات والطواعين على اليد العاملة نذكر على سبيل المثال ما حدث سنة 1785م حيث استفادت الشركة الإفريقية في عنابة من ازدياد كمية الصوف المصدر إلى أوروبا بسبب نقص اليد العاملة التي قضى عليها الطاعون ما جعل الحرفيين عاجزين عن استغلال الصوف المتوفر²، وهو نفس الأمر الذي حدث خلال 1787.

وقد أدى هذا النقص إلى انخفاض الطلب على القمح وهو ما استغلته الشركة الإفريقية في عنابه لمضاعفة تصدير القمح الجزائري إلى فرنسا وهو ما وقع بحيث وصلت صادرات القمح إلى فرنسا إلى خمسة وعشرون ألف طن من القمح بشكل مضاعف بعد أن كانت حوالي اثنا عشر ألف طن في السنة الماضية³.

وقد أدت الأزمات الصحية والمعيشية أدت الى غلق الكثير من المراكز التجارية مثلما حدث خلال انتشار الوباء سنة 1822م بمدينة عنابة⁴.

- توقف النشاط الفلاحي وفساد المحاصيل الزراعية:

من بين تجليات انتشار الأوبئة وحصول المجاعات على المجتمع توقف النشاط الفلاحي وتدهور الإنتاج الزراعي ومن بين الأمثلة على ذلك ما حدث سنة 1702م حيث توقف نشاط الفلاحين بسبب وباء الطاعون الذي كان قد اجتاحت مناطق الجزائر بداية من سنة 1700م وهو ما أدى بدوره إلى ظهور المجاعة في البلاد⁵.

¹ كانت الحرف تنجز في ورشات خاصة من طرف حرفيين تابعين لنقابات مهنية وعلى رأس كل حرفة منها أمين...للتوسع أكثر ينظر: أرزقي شويتم، المرجع السابق، ص319.

² Lucette valensi, op. cit, p21.

³ - خير الدين سعيدي ، المرجع السابق، ص 282.

⁴ - رشيد حفيان ، الكوارث الطبيعية ... ، المرجع السابق، ص 180

⁵ Jean Marchika , op. cit, p73.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

خلال المجاعة التي ضربت بايلك الغرب سنة 1794م شهد إنتاج الأشجار المثمرة تراجعاً كبيراً بالإضافة إلى الارتفاع الفاحش في الأسعار¹.

شهدت مدينة وهران خلال سنة 1815م اجتياح موجات كبيرة من الجراد الذي قدم من المناطق الشرقية مما أدى إلى تلف المحاصيل الزراعية سواء الخضر أو الأشجار المثمرة ما جعل السلطة الحاكمة تأمر بتنظيم حملات صيد للجراد الصغير للحد من خطورته على الثروة الفلاحية².

خلال وباء 1822م تسبب الوباء في عواقب وخيمة على الثروة الحيوانية فقد هلكت من جرائه أعداد معتبرة من القطعان ما سبب خسائر فادحة للفلاحين³.

- تدهور الأوضاع المالية :

لقد كانت الأوضاع الصحية والمعيشية عائقاً أمام تحسن الوضع المالي ،وقد ساعد في سوء الأحوال الصحية عوامل متعددة سبق التطرق إليها ،كما أن المجاعات هي الأخرى قد أثرت على النمو الاقتصادي للبلاد بحكم عجز مصادر الدخل المحدودة على تغطية سنوات القحط والجفاف⁴.

ومن بين الأمور التي استنزفت الموارد المالية للبلاد محاولة السلطة لمعالجة ندرة المواد الغذائية أو ارتفاع أسعارها عن طريق الإستيراد ونشير هنا إلى مثال قد سبق ذكره وهو ما قام به الباي محمد الكبير الذي كان دائماً ما يواجه ارتفاع الأسعار باستيراد القمح وطرحه في الأسواق بسعر منخفض ودون هامش ربح،ومن المؤكد أنّ هذا الأمر كان يستنزف الخزينة رغم أنه كان أسلوب الباي لمواجهة الأزمات الغذائية⁵.

¹ ناصر الدين سعيدي، النظام المالي للجزائر ...، المرجع السابق، ص53.

² J.I.Goyun, op.cit, p371.

³ فلة القشاعي، المرجع السابق، ص446.

⁴ ناصر الدين سعيدي، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830م) دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ط3، ص53.

⁵ أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 144.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

ومن بين المجاعات التي استنزفت الخزينة مجاعة سنة 1800م و 1806م وكذلك الأمر بالنسبة لسنة 1816 و 1819 وهي السنة التي استوردت فيها السلطات حوالي خمسون ألف صاع من القمح من أوروبا لتجاوز هذه الأزمة¹.

وإضافة إلى الاستيراد عانى المجتمع من ارتفاع الأسعار وخاصة المواد الأساسية كالقمح والشعير كان يزيد من حدة المجاعات وبالتالي التراجع الرهيب في حجم المبادلات التجارية سواءً الداخلية أو الخارجية وبالتحديد مع الدول الأوروبية والتي كانت أهم نشاطاتها التجارية مع الجزائر تجارة القمح².

كما أدت المجاعات إلى ارتفاع الأسعار بشكل مضاعف حتى عجز الكثير من السكان في ظل الفقر وضعف القدرة الشرائية على اقتناء المواد الغذائية الضرورية كالقمح الذي كان يتضاعف سعر الصاع الواحد منه إلى عدة أضعاف مع حدوث الأزمات³.

4- الانعكاسات على المجال العسكري :

من المعروف أن المجاعات والأوبئة لها تجليات متعددة على مختلف الجوانب ومن بينها التأثير الشديد على الجانب العسكري، ويختلف مستوى التأثير باختلاف شدة الأزمة الصحية أو المعيشية فكلما كانت الأزمة شديدة كان وقعها أكثر على مختلف المجالات⁴، ولعل المتتبع للتاريخ العسكري سيلاحظ أنه خلال الأزمة الصحية أو الغذائية تتوقف الكثير من الحملات العسكرية وتضعف الجيوش القوية وتقلب الكثير من موازين القوى .

ومن خلال التاريخ العسكري كثيرا ما كانت حركة الجيوش عاملا رئيسيا في تفشي الأوبئة ومن بين الأمثلة في التاريخ الحديث ذلك الوباء الذي ضرب القارة الأوروبية سنة 1743م والذي تسبب فيه انتقال الجيش الفرنسي عبر جبال الألب إلى أعماق أوروبا ما تسبب في انتقال العدوى إلى مختلف أرجاء القارة⁵.

¹ناصر الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 54.

²-خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 287.

³-ناصر الدين سعيدي، المرجع نفسه، ص 53 .

⁴خير الدين سعيدي، المرجع نفسه، ص 288.

⁵ نفسه.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

ومن خلال ما توفر لدينا من معلومات لم نحصل على المعلومات الكافية عن بايلك الغرب لذلك سنتطرق إلى الأمثلة المتاحة حول التجليات العسكرية على الإيالة عموماً.

من بين أهم التأثيرات العسكرية توقف النشاطات والحملات العسكرية، فخلال سنة 1738م وأثناء الحملة التي قادها الباي "يوسف ولد بوشلاغم ضد الاحتلال الإسباني لمدينة وهران أصيب بالوباء، وهو ما أدى إلى توقف هذه الحملة¹، ووفاته في نفس السنة بمدينة تلمسان متأثراً بالوباء كما أشرنا سابقاً².

ومن بين الأمثلة كذلك على تأثير الوباء على النشاطات العسكرية ما وقع في نهاية جوان من سنة 1741م يشير مارشيك "marchika" إلى توقف الحملات العسكرية إلى تونس بسبب الطاعون الذي انتشر في الثكنات العسكرية في بايلك الشرق³.

من جهة أخرى كانت الأوبئة دائماً ما تتسلل إلى الثكنات العسكرية مثل ما وقع في مدينة الجزائر خلال سنة 1786م بحيث أشار قويون "Goyun" إلى أنّ الطاعون قد قضى على عدد كبير من الجنود في كل من: ثكنة "باب الواد"، "باب عزون" و"باب الجديد"⁴.

إضافة إلى إنتشار الوباء في أوساط المحلات العسكرية⁵ المكلفة بجمع واستخلاص الضرائب والتي تزايد نشاطها مع نهاية القرن 18م، وقد اعتبرت هذه المحلات وسيلة من وسائل نقل ونشر الأوبئة في المناطق التي تحل بها.

ومن بين الأمثلة على ذلك ما وقع في بايلك الشرق حين انتشرت العدوى خلال سنة 1786م ثم انتشرت بقوة في أوساط المحلة العسكرية المكلفة باستخلاص الضرائب من سكان جنوب البايك⁶.

¹خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص289.

²ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ص278.

³Jean marchika, op.cit ,p89.

⁴J.I.Goyun, op.cit, p374.

⁵ من بين الوسائل المعتمدة في استخلاص الضرائب اعتماد السلطة على المحلات أو الفرق العسكرية لإجبار السكان على دفع الضرائب وخاصة تلك القبائل التي تلجأ إلى العصيان والتمرد ضد السلطة، وقد تعدى دورها الاقتصادي في تحصيل الضرائب إلى كونها وسيلة من وسائل انتشار الأوبئة في المناطق التي تصلها ينظر: رشيد حفيان، الكوارث الطبيعية...، المرجع السابق، ص271.

⁶ نفسه، ص272.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

وعموما فقد استنزفت المجاعات والأوبئة العنصر البشري والإمكانات المادية الضئيلة خصوصا مع بداية القرن التاسع عشر، لذلك يمكن اعتبار تعاقب وتزامن الأزمات الصحيّة والمعيشية عاملا من عوامل انهيار البنية الاجتماعية بكلّ مكوناتها، ما سهّل المهمة للاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

ومقارنة بالدول الأوروبية في هذه الفترة كان العنصر البشري عاملا مهما في تطور هذه الدول وتنفيذ مشاريعها التوسعية والاستيطانية وكان قد ساهم في تطورها النمو الديموغرافي بفضل الاستراحة من الأزمات الصحيّة في نفس الفترة التي كانت تعاني فيه الإيالة من الانكماش الديموغرافي¹.

5- الأزمات الصحية والمعيشية والدراسات التاريخية :

من بين مميزات البحث العلمي مواكبة الأحداث والتطورات البشرية الحاصلة في جميع المجالات، وبحكم حركية التاريخ تعتبر الدراسات التاريخية التي تعالج موضوع الأزمات الصحية والمعيشية بكل حيثياتها مرجعا علميا لا يمكن الاستغناء عنه وبالتالي يتحمل الباحث في التاريخ المسؤولية التاريخية التي تفرض عليه المساهمة في تدبير الأزمات المتجددة عبر العصور².

وفي مجال التأريخ للأزمات تمكنت البلدان الأوروبية من أن تخطو خطوات علمية إيجابية عن طريق إنشاء المعاهد المتخصصة في دراسة تاريخ الأوبئة، والتي أثمرت مجموعة من الدراسات أصبحت تشكل لبنة لتقديم المقترحات التي تساهم في إيجاد الحلول الممكنة استنادا لنتائج هذه الأبحاث .

ومن هنا استثمرت أوروبا في مجال البحث التاريخي وأصبح المؤرخون إلى جانب الباحثين في التخصصات الأخرى شخصيات فاعلة في هذه الدول وذلك عن طريق المساهمة في تدبير الأزمات والجوائح بفضل المعرفة التاريخية³.

¹- محمد الأمين البزاز، المرجع سابق، ص12.

² سعيد البوزيدي، المؤرخ والجوائح: بين العبرة وإعادة الاعتبار، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد19"، إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرخان، مطابع الرباط، المغرب، 2020، ط1، ص24.

³ نفسه، ص26.

5-1- صناعة الوباء "لمحة تاريخية":

من الحقائق التاريخية التي وقعت في الأزمنة الماضية هو أن الوباء كان وسيلة من وسائل الإرهاب البيولوجي التي استخدمها البشر منذ القدم وفي هذا المقام سنحاول عرض بعض الأمثلة التاريخية ،

لقد استخدم الوندال سلاح نشر الأوبئة لصالحهم فقد كانوا يلجؤون لإسقاط المدن المحاصرة بذبح الأسرى ورميهم أمام أسوار المدن ،وترك هذه الجثث تتعفن ثم تتحلل وبالتالي تنتقل العدوى الناتجة عن تعفن الجثث على شكل أوبئة إلى السكان المحاصرين فتهلكهم¹، ثم تطورت الأمور بعد ذلك من هذه الأمور البدائية إلى الحروب الجرثومية الفتاكة في الفترة المعاصرة.

ومن بين الأمثلة التي وقعت في الفترة المعاصرة ما وقع خلال الحرب العلمية الأولى والثانية حيث أجرى اليابانيون سلسلة من التجارب على مجموعة من الأشخاص باستخدام عصية يرسين "Yersin" وتطبيق نتائجها في عملية غزوهم للصين كسلاح بيولوجي فتاك. وقد تمكن بعد ذلك الجيش الأمريكي والجيش السوفياتي من أسر الباحثين اليابانيين وإجبارهم على ابتكار رذاذ جرثومة "يرسين" قصد الإستفادة منه كسلاح بيولوجي في الحروب².

وإضافة إلى هذه الأمثلة يعتبر الكثير من الدارسين لتاريخ الطب أنه أصبح في الفترة المعاصرة وسيلة لنقل وتطبيق الأفكار الإمبريالية(إيديولوجية قائمة على تسلط واستعمار الشعوب والسيطرة عليها في كل المجالات...)، ويكون ذلك بنشر أمراض وبائية لم تكن موجودة من قبل في إفريقيا وآسيا ومن ثم استخدام مفهوم مقاومة هذه الأمراض عن طريق مؤسسات طبية تسهل السيطرة والتحكم في المناطق المصابة بالأوبئة³.

وقد استخدمت القوى الأوروبية مساعدة الشعوب المستعمرة خلال الأزمات الصحية والغذائية في مختلف المناطق المستعمرة مثل توظيف الطب الكولونيالي كصورة إشهارية في

¹ مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات...، المرجع السابق، ص21.

² نفسه.

³ شلدون واتس، المرجع السابق، ص7.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بايلك الغرب

المغرب الأقصى ما بين 1912 و1956م قصد تلميع صورتها أمام السكان المحليين كطرف متضامن معهم¹.

لقد أعاد هذا الوباء إلى الأذهان فرضيات المؤامرة على البشر، خصوصا من خلال الجدل الدائر حول الاحتمال الكبير لكون هذا الوباء صناعة بشرية لتقليص عدد كبير من البشر، وإلى ذلك لا تزال المعلومات الحقيقية حول نشأة هذا الفيروس لم تظهر وهو ما أكدته منظمة الصحة العالمية والتي أشارت إلى أن جميع الفرضيات لا تزال مطروحة².

ومع عودة الحديث عن إمكانية افتعال الوباء وأنه صناعة بشرية من خلال الوباء المدمر الذي أصاب البشرية خلال نهاية سنة 2019م، فقد أصيب العالم بوباء كورونا (covid 19) المدمر، وبالنسبة للجزائر فقد انتقلت إليها جائحة كورونا في 25 فيفري 2020 عند ظهور فحص إيجابي لمصاب من جنسية إيطالية بالمرض قبل أن يتم ترحيله إلى بلده في 28 فيفري بعد إقامة الحجر الصحي عليه .

وبعيدا عن مصدر الوباء نحاول إعطاء لمحة سريعة عن تداعيات هذا وباء كورونا الاجتماعية فإضافة إلى التدهور والانكماش الاقتصادي الذي شهدته الجزائر وحتى كبريات الاقتصاديات العالمية أفرز الوباء الكثير من المشاكل والآثار الاجتماعية سواء من خلال العدد الكبير للضحايا الذين سقطوا جراء هذا الوباء أو من خلال تعطل النشاطات الاقتصادية الحرة والتي أثرت على فئات معتبرة من المجتمع.

بالرغم من الآثار السلبية لجائحة كورونا إلا أنها أظهرت بعض الأمور الإيجابية كالتقاء العائلة الصغيرة ومظاهر التكافل والإحسان التي تعود عليها المجتمع الجزائري، لذلك وجب استثمار هذه الأزمة لتغيير وتطوير المجتمع الجزائري وتصحيح الكثير من السلوكيات

¹ سعيد البوزيدي، المرجع السابق، ص26.

² لقد صرح المدير العام لمنظمة الصحة العالمية قائلا "...تظل جميع الفرضيات مطروحة على الطاولة لم نجد بعد مصدر الفيروس ويجب أن نستمر في مجارة العلم...، نحن مدينون للعالم بالعثور على المصدر حتى نتأكد من ذلك " للمزيد من المعلومات ينظر: <https://www.who.int/ar/news/item/17-08-1442-who-calls-for-further-studies>

[data-on-origin-of-sars-cov-2-virus-reiterates-that-all-hypotheses-remain-open](https://www.who.int/ar/news/item/17-08-1442-who-calls-for-further-studies) تاريخ

الدخول: 10 ديسمبر 2021.

الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بابلك الغرب

والممارسات الغير واعية بخطورة الأزمات الصحية ولا يكون ذلك إلا بتضافر جهود مختلف المؤسسات والهيئات الفاعلة في المجتمع.

لقد كان موضوع بحثنا فرصة لعرض الأزمات الصحية والمعيشية في بابلك الغرب مع ما توفر لدينا من مادة علمية لذلك نرى أن التأريخ للأزمات مجال بحثي خصب وجدير بالدراسة، كما أنه حديث العصر من خلال ما نلاحظه من تجليات اجتماعية واقتصادية كبرى على المستوى المحلي والعالمي.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة نذكر ما خلصنا إليه من استنتاجات نعدّها فيما يلي:
تعتبر الأزمات والمحن التي تمر بها الأمم مرآة عاكسة لحياة الشعوب وبالأخص الأزمات الصحية والمعيشية.

لقد كشفت الأوبئة والمجاعات مدى تفاعل المجتمع والسلطة مع الأزمة وردود الفعل الايجابية والسلبية تجاه هذه الأزمات.

كان تعامل المجتمع مع الأزمات الصحيّة يستند على خلفيات ثقافية أساسها كتب التراث الإسلامي والمعتقدات الراسخة لدى السكان سواء في حصول هذه الأزمات أو في طريقة التعامل معها.

تعتبر المجاعات والأوبئة من أخطر الأزمات التي ضربت المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني كونها دمّرت مختلف الجوانب الحياتية وكانت عاملا أساسيا في انهيار الكيان السياسي العثماني بالجزائر سنة 1830م.

تميز المجتمع الجزائري بخصوصيات ميّزته خلال هذه الفترة سواء في التركيبة المتعددة العرقية والثقافات، أو من خلال المستوى المعيشي فقد كانت هناك فوارق طبقية وتباين واضح في المستوى المعيشي لمخلف الفئات حسب علاقتها بالسلطة الحاكمة سواء في المدن أو في الأرياف.

تعاقبت على بابلك الغرب الجزائري أوبئة فتاكة ومجاعات مهلكة خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ساهمت فيها العديد من العوامل الطبيعية والبشريّة والموقع الجغرافي للبايلك، إضافة إلى خصوصية البايلك الذي عانى من الاحتلال الإسباني منذ سنة 1509م وإلى غاية سنة 1792م.

كانت فترة ذروة النشاط الوبائي في الجزائر عموما وبابلك الغرب على وجه الخصوص مع نهاية القرن الثامن عشر م وبداية القرن التاسع عشر في حوالي 1817 و1818م وقد تزامنت هذه الأوبئة مع المجاعات القاسية وموجات الجفاف و الجراد التي كانت مدمّرة للإنتاج الفلاحي ما تسبب في أزمات غذائية مهلكة .

من بين خصوصيات الأوبئة المنتشرة في الجزائر أنها كانت وافدة من البيئات الأخرى ولم تكن محلية من حيث نشأتها، كما أنها كانت تظهر بصفة تكرارية ومتزامنة مع ظهور المجاعات الأمر الذي ساهم في تأثيراتها الشديدة على مختلف المجالات.

من بين أهم الأسباب المؤدية لحصول الأزمات الصحية الحركية المستمرة للموانئ من خلال النشاط التجاري أو من خلال تنقلات الحجاج من الأقطار المغاربية إلى البقاع المقدسة واحتكاكهم بقوافل الحجاج الوافدة من بيئات مختلفة، إضافة إلى المسالك البرية ومحطات التقاء القوافل التجارية وغيرها.

ساهمت العوامل المناخية في حصول الأوبئة كالرطوبة وتعفن الهواء إضافة إلى انتشار المستنقعات في المناطق الشمالية، كما أدت الموجات المتكررة للجفاف والجراد إلى قلة المحاصيل الزراعية وتقلص النشاط الزراعي ما أدى إلى حصول المجاعات وارتفاع أسعار المواد الغذائية.

لعبت السلطة العثمانية دورا كبيرا في تفاقم الأزمات الغذائية والصحية، فقد أدى التصدير العشوائي للحبوب في اضطراب الأسواق وارتفاع الأسعار وانعدام المواد الغذائية في الأسواق وذلك بسبب منح الامتيازات والرخص للسماسرة اليهود الذين استغلوا الفرص الممنوحة لهم مثل ما وقع خلال سنة 1794م من تصدير كميات ضخمة من الحبوب من ميناء وهران إلى البلدان الأوروبية.

إضافة إلى ذلك فإن السلطة العثمانية كان تفاعلها في بعض الأحيان سلبيا في فترات انتشار الوباء من خلال عدم تطبيق الحجر الصحي، مع أن هناك نماذج للتفاعل الإيجابي لرجال السلطة مع الأزمات مثل ما قام به الباي محمد الكبير أثناء حصول المجاعة من استيراد الحبوب وطرحها في الأسواق ومساعدة الفئات الفقيرة والمعدمة في عاصمة البايك مدينة وهران.

ساهم في تفاقم الأزمات الصحية سلوكيات المجتمع السلبية من خلال عدم اتخاذ الإجراءات الاحترازية أو الاهتمام بالجانب الطبي وعدم مجاراة التطورات الحاصلة في هذا المجال بالنسبة للمجتمعات الأوروبية، إضافة على سيطرة بعض المعتقدات والأفكار التي جعلت الكثير من

الفئات تستسلم لهذه الكوارث على أنها قضاء وقدر مع أن الشريعة الإسلامية تدعو إلى اتخاذ كل الوسائل لتجنب العدوى، وقد تفاعل مع هذه الجزئية العديد من المؤرخين الذين عايشوا تلك الفترة مثل حمدان خوجة الذي انتقد كثيرا سلوكيات المجتمع الجزائري ودعى إلى ضرورة الاستفادة من التطورات الأوروبية في المجال الطبي وضرورة تطبيق نظام الحجر الصحي.

لقد أدت المجاعات والأوبئة إلى تدمير مختلف الجوانب الحياتية لسكانة بايلك الغرب الجزائري ومختلف مناطق الإيالة الأخرى، فقد نتج عنها تقلص النشاط الاقتصادي وتفكك البنية الاجتماعية وتدمير التوازن الديموغرافي، إضافة إلى تهقر الوضع الأمني والسياسي والذي نتج عنه انهيار وسقوط الكيان العثماني بالجزائر وتعرض البلد إلى سيطرة امبريالية فرنسية لتضاف إلى قائمة المآسي التي لحقت بالأمة الجزائرية التي لم تكد تستريح على مر تاريخها من أزمة حتى تظهر أخرى أشد منها.

إن البحوث التاريخية الأكاديمية لها غايات وأهداف جلية تسعى لتحقيقها إذ هي ليست مجرد سرد عابر لأحداث ووقائع مضت، بل غايتها الأساسية الاستفادة من أخطاء الماضي وسلبياته وتصحيحها لخدمة المجتمعات وأخذ العبر والدروس وهي الغاية الأسمى للدراسة التاريخية.

فالواقع اليوم والمتزامن مع وباء كورونا قد أثبت لنا مكامن الضعف في المنظومة الصحية الجزائرية والتي لا بد أن تستدرك في الآجال القريبة ونحن كباحثين في المجال التاريخي ملزمون بمسؤوليتنا في طرح الوقع المعاش اليوم بكل موضوعية وحيادية للمساهمة في وضع الحلول لمواجهة الأزمات المحتملة في الأزمنة الآتية مستقبلا.

لقد أثبتت جائحة كورونا أن منظومتنا الصحية ضعيفة لا تقوى على تحمل الأزمات الكبرى، لذلك نرجو من الهيئات الفاعلة التجنّد لإصلاح وتطوير الجانب الصحي كونه هو من يضمن مستقبل الأجيال القادمة، كما نتمنى من الهيئات العلمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية الالتفات إلى المواضيع التاريخية التي تلامس الجانب السوسيولوجي والخروج من قوقعة المواضيع الكلاسيكية حتى يؤدي الباحثون في المجال التاريخي دورهم المطلوب في خدمة القضايا الإنسانية والاجتماعية.

كما نرى ضرورة تطوير الإنتاج الفلاحي والتقليص من فاتورة الاستيراد الضخمة للمواد الغذائية لتحقيق الأمن الغذائي وتجنب المجاعات المحتملة والتي تعاني منها الكثير من البلدان الإفريقية والآسيوية في الوقت الحاضر.

وفي ختام هذه الدراسة نتمنى أن يحفظ الله البلاد والعباد من البلايا والأوبئة والمجاعات وكل المصائب والفتن.

وخير ما نختم به أبيات خالدة للولي الصالح والعلامة الفقيه "سيدي عبد الرحمان الثعالبي" بقوله:

إن الجزائر في أحوالها عجب	****	ولا يدوم بها للناس مكروه
ما حلّ عسر بها أو ضاق متسع	****	إلا ويسر من الرحمان يتلوه

الملاحق

الملحق رقم 1: جدول مصطلحات الأوبئة .

المصطلح بالعربية	المصطلح بالفرنسية
علم الأوبئة	Épidémiologie
الكوليرا	Choléra
الموت الأسود (تطلق على الطاعون)	Pestes atra
الطاعون الخراجي أو الدملي	Pestes bubonique
الطاعون الرئوي	Pestes pulmonaire
التيفوس	Typhus
المتردة	fièvre rémittentes
المتواترة	fièvre récurrentes
مرض الزهري	petite vérole
الملاريا	Malaria
خراج	Bubon
الطاعون التعفني	Pestes septicémique primaire
الجدري	la variole

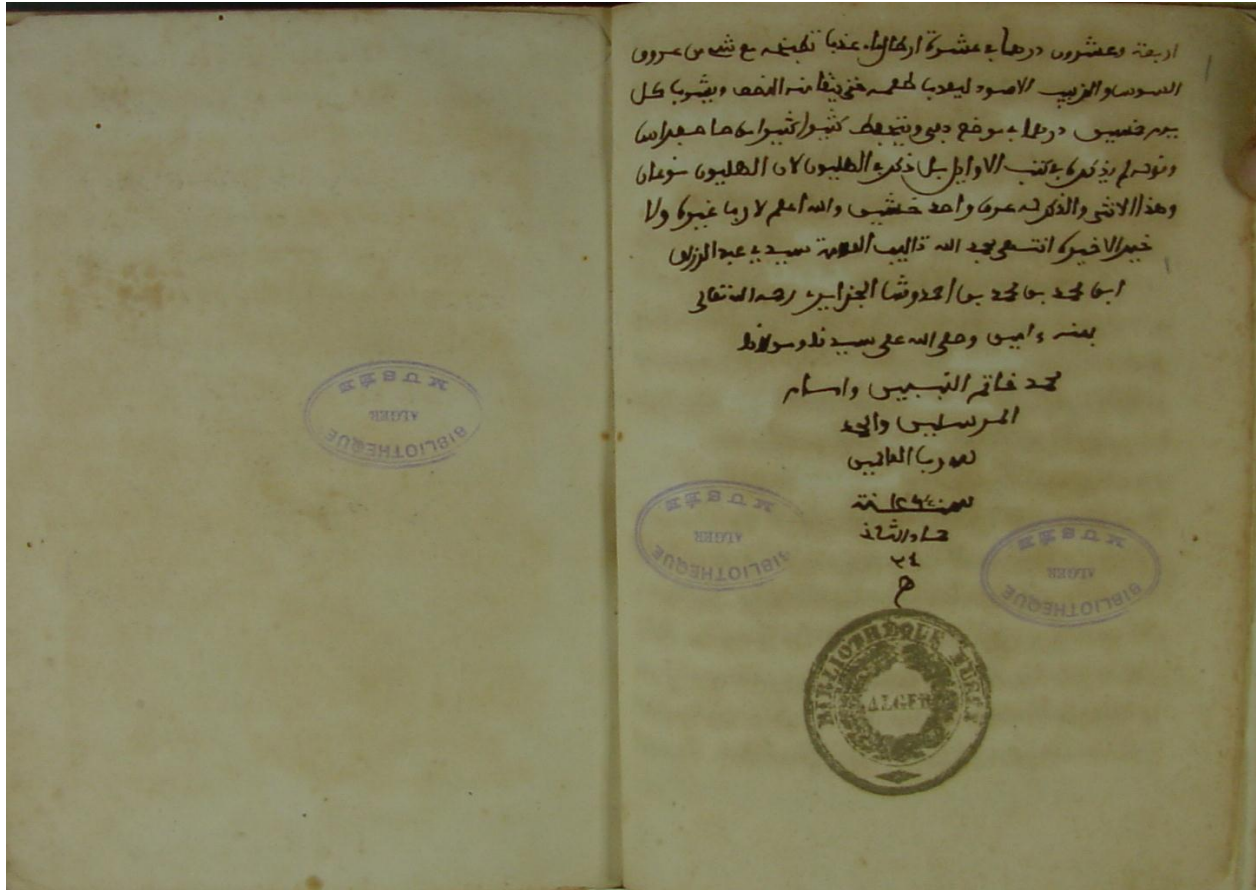
الملحق رقم 2: الصفحة الأولى من مخطوط الكتاب الرابع في الأدوية المجربة وشرح أسمائها لـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري¹



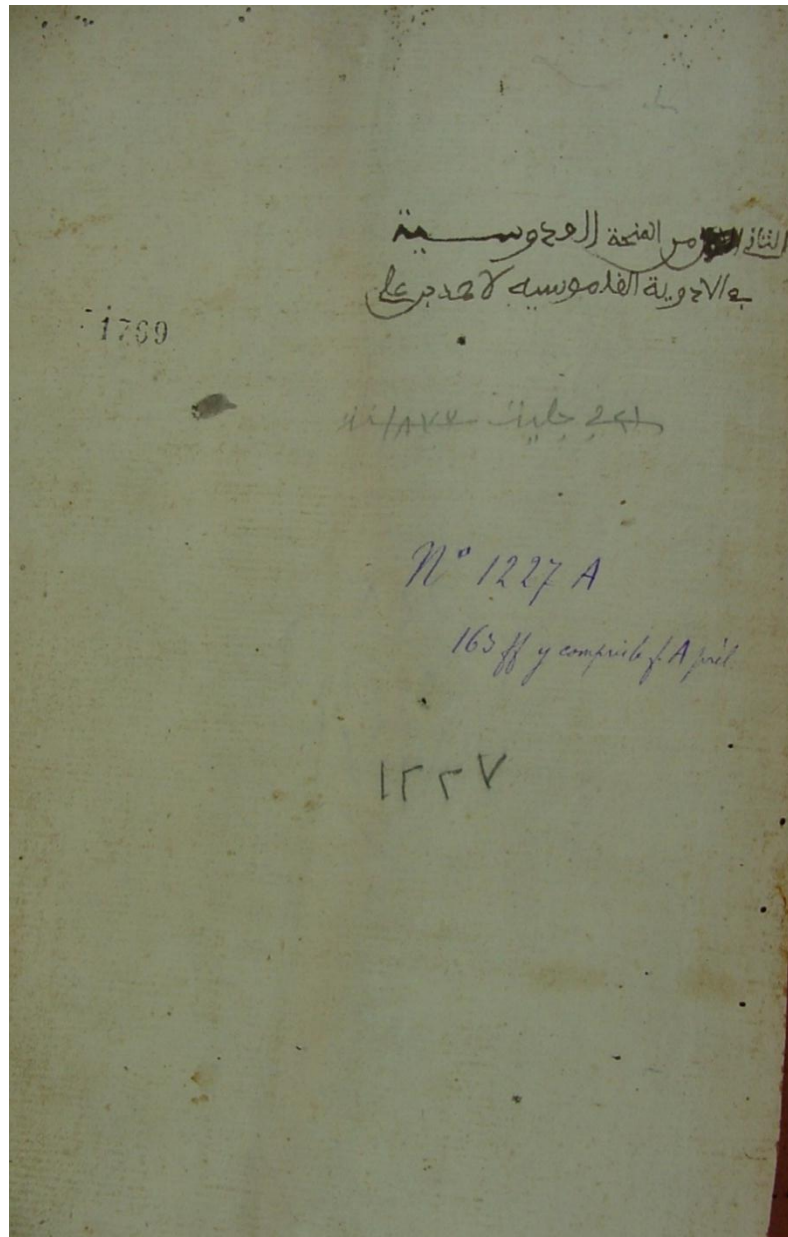
¹ - المخطوط رقم 1764 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

الملاحق :

الملحق رقم 4: الصفحة الاخيرة من مخطوط الأدوية المجربة "ضمن موسوعة الجواهر المكنون" لابن حمادوش¹



الملحق رقم 5: الصفحة الاولى من مخطوط القدوسية في الأدوية القاموسية لأحمد بن علي بن سحنون الراشدي¹

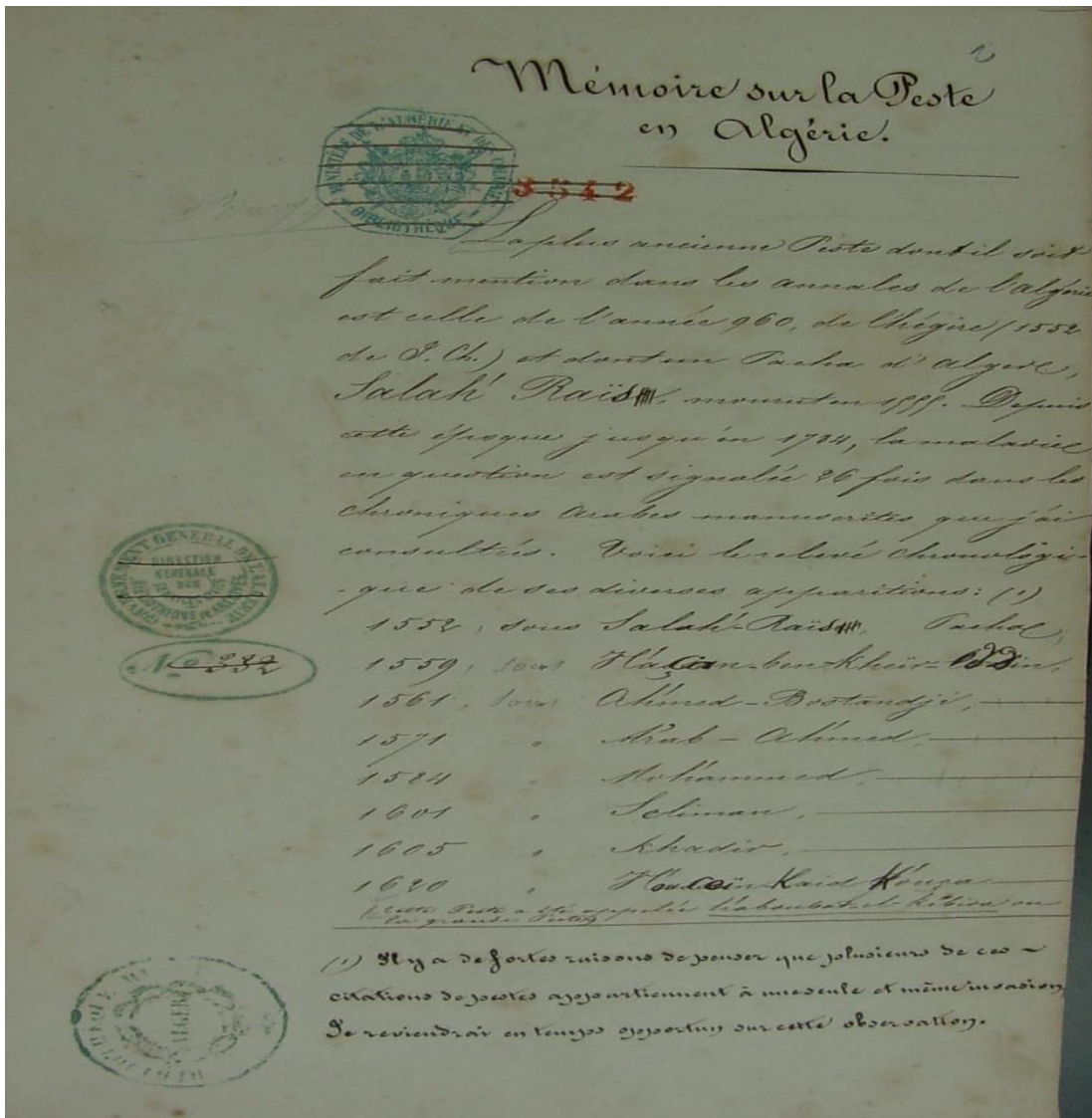


¹ - المخطوط رقم 1769 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

الملحق رقم 6: الصفحة الوسطى من مخطوط القدوسية في الأدوية القاموسية¹

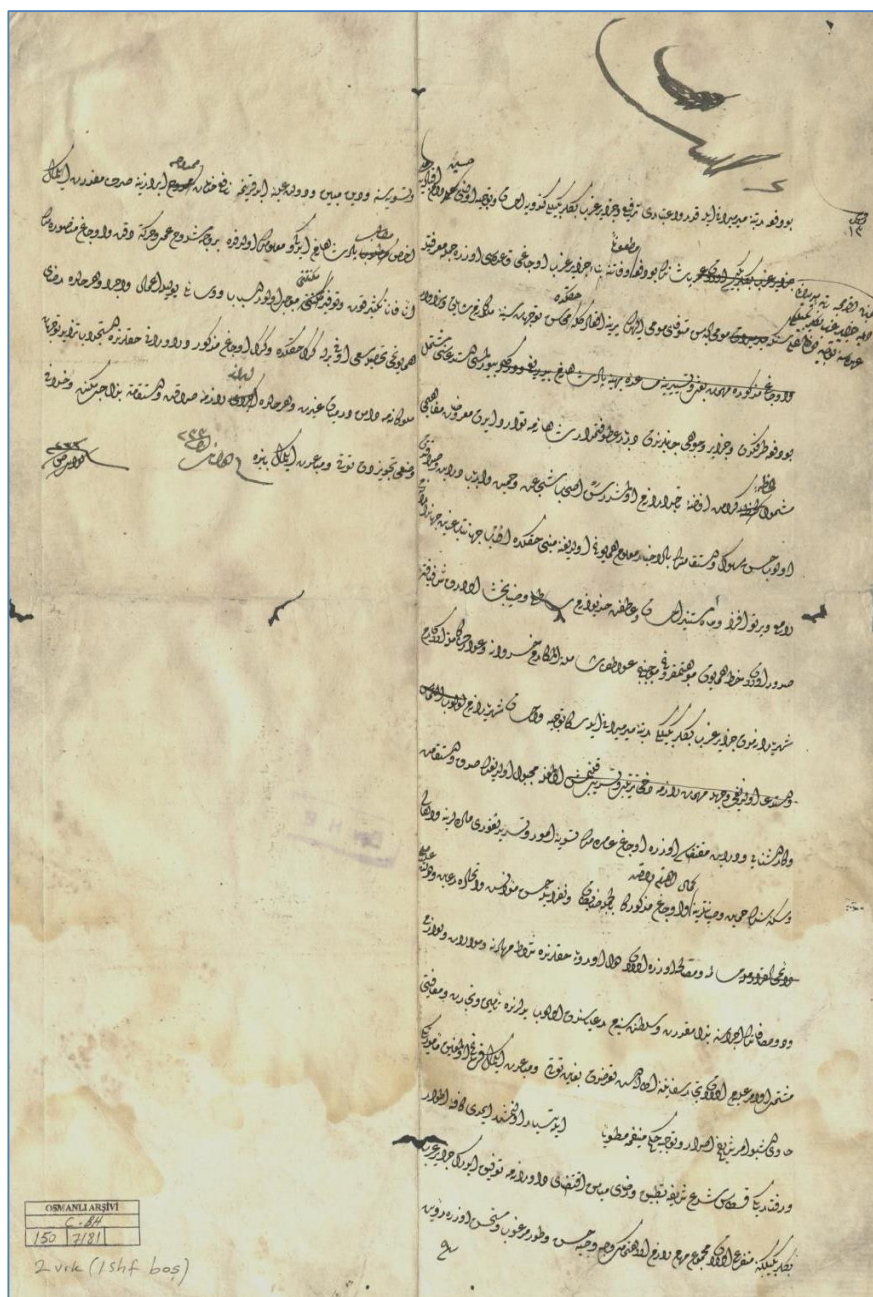
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون
أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون	أدوية العيون

¹ - المخطوط رقم 1769 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.



¹ - حفيان رشيد، الكوارث الطبيعية في الجزائر خلال العهد العثماني، اطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه ، كلية الآداب والحضارة الاسلامية، جامعة الامير عبد القادر ،قسنطينة،الجزائر ، 2020-2021، ص374.

الملحق رقم 9: وثيقة ضمنوا ثائقاً لارشيفالعثمانيةتحدثعن وفاةالدايعليباشا بالطاعون سنة 1817.¹



¹ - خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 325.

الملاحق :

الملحق رقم 10: وثيقتين تتحدثان عن تمديد فترة الحجر الصحي المفروض على البضائع الواردة من الجزائر وتونس الى الدولة العثمانية.¹

مجلس دكانة الكرامة مخصوص ضبط در فرسب

جبلد رقم	عازمبولان زوان قانك اسبي		جبلد رقم
جبلد كساد			٤٠٤
رقعة			١٠٠
٧			١٠٠
مذكرة اولاد مودة مشيد ورفان زوهر خدمه مالا ويايالي اوراد وطر سواد وود نوردي وبلد عوازي ابي وبلد تابع فطر اولد			
تابع عوازي	اولد عوازي نوردي	عوازي	زهر
عرب دول	٩٨	٤	٩٨
خدمه مالا عوازي وبلد مشيد ورفان زوهر خدمه مالا ويايالي اوراد وطر سواد وود نوردي وبلد عوازي ابي وبلد عوازي وبلد مشيد ورفان زوهر خدمه مالا ويايالي اوراد وطر سواد وود نوردي وبلد عوازي ابي وبلد عوازي وبلد مشيد ورفان زوهر خدمه مالا ويايالي اوراد وطر سواد وود نوردي وبلد عوازي ابي وبلد عوازي وبلد مشيد ورفان زوهر خدمه مالا ويايالي اوراد وطر سواد وود نوردي وبلد عوازي ابي وبلد			

الملحق رقم 11: الوثيقة تابعة للملحق رقم 10¹

- الجزائر في الوثائق العثمانية، رئاسة الوزراء، المديرية العامة لدور المحفوظات، رئاسة دائرة الارشيف العثماني رقم 115،¹ انقرة 2010، ص 256.

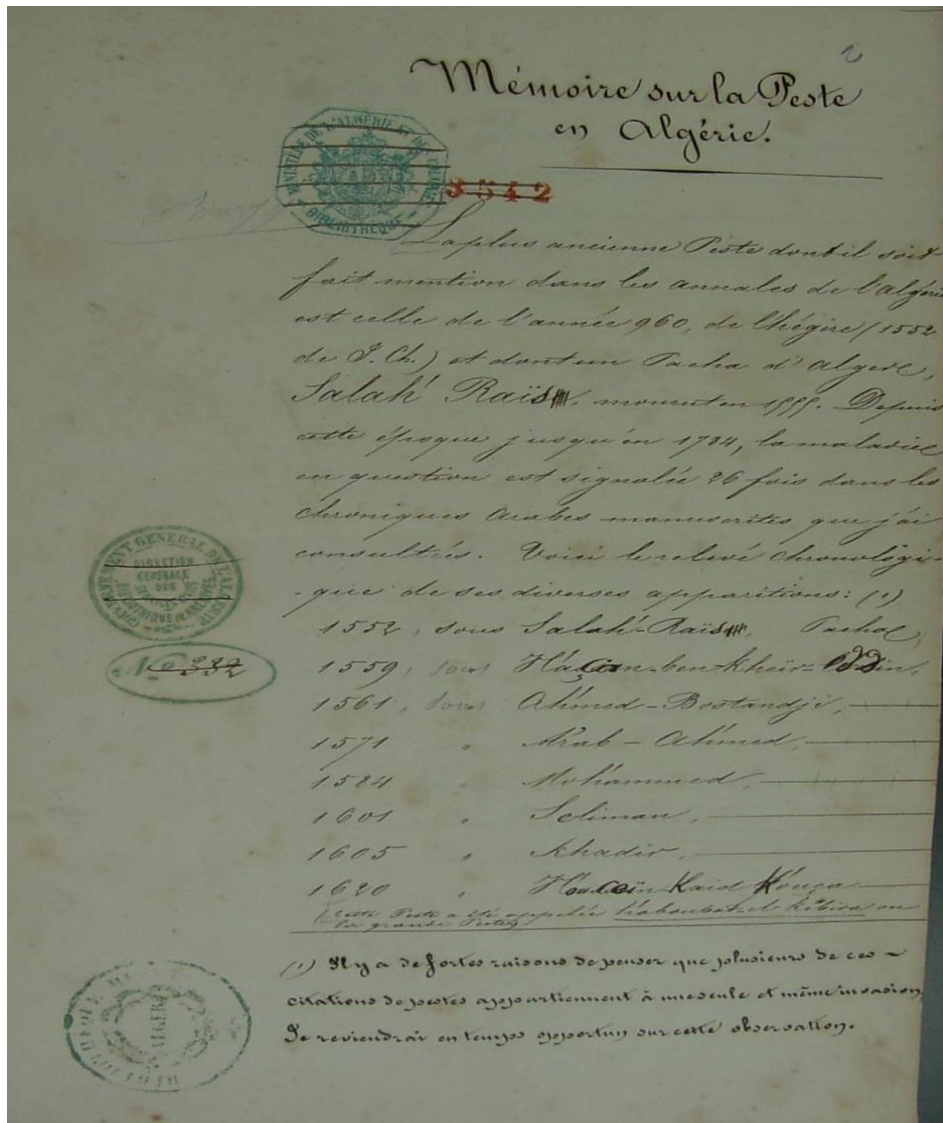
نزار

أمره بكونه مودعاً صفحاً قانداً في ذلك المكان موافقاً وعملان اورا في غابت خفيفاً صوته حتمتاً اجراً في ذلك
 مؤنس وبنم وبن مفسد في تانبه في ذلك المكان كونه في ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان
 عقلت مؤنس وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان
 خفيفاً في ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان
 ران في صوته في ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان
 بان في ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان وبنامه من ذلك المكان

نزار	نزار	نزار	نزار	نزار
نزار	نزار	نزار	نزار	نزار
نزار	نزار	نزار	نزار	نزار
نزار	نزار	نزار	نزار	نزار
نزار	نزار	نزار	نزار	نزار

MV, 5/82

¹ - الجزائر في الوثائق العثمانية، نفس المصدر، ص 257.



¹ - حفيان رشيد، الكوارث الطبيعية في الجزائر خلال العهد العثماني، اطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه ، كلية الآداب

والحضارة الاسلامية، جامعة الامير عبد القادر ،قسنطينة،الجزائر ، 2020-2021، ص374

قائمة المصادر والمراجع

-قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم (رواية ورش)

-الأحاديث النبوية

1. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري ج3 موافقة لترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا -القاهرة -، ط1، 2003.
 2. صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1422هـ، ط1، ج7، ص130، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: 5769.
 3. صحيح ابن حبان بترتيب ابن اللبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم الدارمي، البستي، صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ط2، ج13، ص483، كتاب العدوى والطيرة والفأل، رقم الحديث: 2115.
- الوثائق الأرشيفية:

- مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1764.

- مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1769.

- وثيقة ضمن كتاب: الجزائر في الوثائق العثمانية، رئاسة الوزراء، المديرية العامة لدور المحفوظات، رئاسة دائرة الارشيف العثماني رقم 115، انقرة 2010.

-المصادر:

1. ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ج1، ضبط المتن ووضع الحواشي

قائمة المصادر والمراجع :

- والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010 .
2. أبو القاسم الزياتي، (1991)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برّا وبحرا تح وتغ: عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط ، 1992.
3. بن عبد القادر مسلم، (1974)، تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تح وتغ: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ب.ن).
4. الناصري محمد أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977.
5. محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق وتغ: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2.
6. الراشدي أحمد بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني -تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي -عالم المعرفة للنشر والتوزيع ط1-2013.
7. رحلة العالم الألماني: ج.أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ-1732م)، تر وتغ وتغ: ناصر الدين سعيدوني، دار العرب الإسلامي، تونس، دت، دط،
8. الزهار أحمد الشريف، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، دار البصائر، الجزائر، 2009.
9. الزياتي محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتغ: المهدي الوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
10. العنتري محمد بن صالح، سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة ،منشور تحت عنوان: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

قائمة المصادر والمراجع :

11. العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج11، حقق أصولها وأجازها عبد العزيز عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2007، ط1
12. المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.
13. مسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
14. المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تح وتق: محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، دت.
15. شالر وليام ، مذكرات وليام شالر (قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824)، تق وتر: إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
16. خوجة حمدان بن عثمان، اتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دون سنة نشر.
17. خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ط2.
18. الحسن الوزان، وصف افريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ط2.
19. رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تق وتح وتغ: أبو القاسم سعد الله ،عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ط خ.
20. أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفضلي المشرفي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006 مج 2، ص538.

1. سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ط1.
2. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ط1.
3. رشدي إسماعيل ، أبحاث الطاعون، مطبعة الشعب، مصر، 1904. ط1.
4. البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 1992.
5. بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
6. بوعزيز يحيى، مدينة وهران عبر التاريخ، دار زمורה للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2015
7. خياطي مصطفى، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، تر: حضرية يوسف، منشورات anep (المؤسسة الوطنية للاتصال)، الجزائر، 2013.
8. خياطي مصطفى، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، تر: حضرية يوسف، منشورات anep (المؤسسة الوطنية للاتصال)، الجزائر، 2013.
9. كوامن ديفيد ، الفيض (امراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر)، ج2 تر: مصطفى ابراهيم فهمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014.
10. سعيدوني ناصر الدين والبوعبدلي المهدي ، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1988، د ط.
11. سعيدوني ناصر الدين، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر_تونس_طرابلس الغرب) من القرن العاشر الى الرابع عشر

- هجري (من القرن السادس عشر هجري حتى القرن التاسع عشر هجري)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية 31، قسم التاريخ كلية الآداب، جامعة الكويت، 2010، ص45.
12. سعيدوني ناصر الدين، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ط2.
13. سعيدوني ناصر الدين، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ط2.
14. سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية دراسية وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ط2.
15. شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ المرض والقوة الإمبريالية، تر وتق: أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010
16. علامة صليحة، الوضع الصحي في مقاطعة الجزائر 1830-1930، دار القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016.
17. القشاعي فلة الموساوي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013.
18. المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
19. يسعد ليلي محمد وبالعماس بركة، التاريخ الاجتماعي للجزائر، منشورات ألفا للوثائق، قسنطينة الجزائر، 2019، ط1.
20. كوامن ديفيد، أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر، ج2، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014.

1. شويتم أرزقي ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1830_1519، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة الجامعية: 2005_2006،
- 2.خير الدين سعيدي، المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700 1830، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، 2018-2019.
2. دباب بومدين، بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، أطروحة دكتوراه، قسم العلوم الانسانية، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، السنة الجامعية 2017،2016.
3. بن صحراوي كمال، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2012_2013.
4. بونقاب مختار، الحياة الثقافية في بايلك الغرب خلال القرنين 18م19م، رسالة مرشحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2015-2016.
5. بوجلال قدور، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات 1671-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1، 2016-2017.
6. جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببائلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري-قسنطينة، 2007-2008

1- حمود علا محمود ،المجاعات والأوبئة في المغرب والأندلس ق6-8/12-14م"دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"،بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ،جامعة البعث ،العراق،2018 .

2- بوحجرة عثمان ، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني1518-1830م مقارنة اجتماعية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران أحمد بن بلة1، 2014_2015

3- الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1993/ 1994.

4- دغموش كاميليا، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية(1509_1792)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، السنة الجامعية:2013_2014.

5- مزدور سمية، (2008-2009م)، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(588-927هـ/1192-1520م) ، شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة ، الجزائر.

-المجلات والدوريات:

1- بالعربي خالد ، المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني 1299_1442م، دورية كان التاريخية ،ع4،جوان 2009 .

2- آيت حبوش حميد، الكراغلة ودورهم السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني،مجلة الحوار المتوسطي، ع5، دت .

3- هاشمي براهيم؛ ودان بوغفالة،"القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني"، مجلة الناصرية للدراسات التاريخية والثقافية،ع:1، جامعة معسكر، جوان2017 .

قائمة المصادر والمراجع :

- 4- قنون حياة، التواجد الإسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية والإسبانية ، مجلة الحوار المتوسطي، ع 5 ، جامعة سيدي بلعباس ، د ت .
- 5- فارس العيد ، الأوضاع الاقتصادية في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني ، الساوره للدراسات الإنسانية والاجتماعية العدد 5-جوان-2017 .
- 6- رزيم صدام، التجارة الخارجية لبائلك الغرب بعد تحرير مدينة وهران سنة 1781.مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية المجلد.العدد2.أكتوبر2019.
- 7- غطاس عائشة، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني ،مجلة الثقافة ،ع76، 1983.
- 8- حمدادو بن عمر، ظاهرة الأوبئة والأمراض بالجزائر من خلال كتاب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين لأبي حامد المشرفي"، مجلة عصور، ع37، أكتوبر-ديسمبر، 2017.
- 9- عليوان اسعيد، دور الجالية اليهودية في استعمار فرنسا للجزائر 1830م، المعيار، ع 24
- 10- الزين محمد، (2012)، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد17.
- 11- بليل رحمونة، سيطرة اليهود على التجارة الجزائرية الليفورنية خلال القرن الثامن عشر، عصور الجديدة، ع 10، جويلية، 2013.
- 12- الزين محمد، "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع:17، جامعة الجيلالي الياصب-سيدي بلعباس، 2012.
- 13- نفطي وافية،مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة آفاق فكرية، م 5، ع10، ماي 2019.
- 14- بن صحراوي كمال، (2017)، ثورة الطريقة الدرقاوية في الجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد15-16.
- 15- غراف هجيرة، السلطة العثمانية وآليات الوقاية من الأوبئة في إيالة الجزائر"الحجر الصحي أنموذجا"، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، المجلد 7، العدد2 .

- 16- سعادة ياسين، التحليل السوسيولوجي لتاريخ الجزائر إلى أين وصلت النقاشات لتشكيلة ما قبل الاحتلال الفرنسي، الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 2013، 6.
- 17- بوعموشة نعيم، فيروس كورونا (كوفيد 19) في الجزائر-دراسة تحليلية-، مجلة التمكين الاجتماعي، م 2، ع2، جوان 2020.
- 18- الفرقان الحسن، مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة، المغرب، أكتوبر، 2002.
- 19- مشرفي جميلة وبوغوفالة ودان، الأسواق في بابلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج 8، ع1، جوان 2017.
- 20- رقاد سعدية، المؤسسات العلمية في بابلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، مجلة عصور الجديدة، مج:8، ع:2، ديسمبر، 2018.
- 21- ادريس بلعابد، الطقوس والشعائر الدينية الممارسة لمواجهة الجوائح والكوارث في الغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، مجلة القرطاس للدراسات التاريخية والحضارية والفكرية، مج 6، ع 12، جويلية 2019.
- 22- أمين بن محمد انقيرة، جهود العلماء في التصنيف في الطوائف والأوبئة، مجلة متون، مج 13، ع2020، 1.
- 23- شخوم سعدي، قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، مجلد 1، عدد 1، جوان، 2015.
- 24- محمد الصديق بولغيث، حمدادو بن عمر، المجاعات والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديموغرافي ببابلك الغرب الجزائري في أواخر القرن الثامن عشر، مجلة عصور الجديدة، مج:11، ع1، مارس 2021م،
- 25- عبد القادر صحراوي، ثورة الطريقة الدرقاوية في الجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 15، 2017.

قائمة المصادر والمراجع :

26- سعيد البوزيدي، المؤرخ والجوائح: بين العبرة وإعادة الاعتبار، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد19"، إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرحان، مطابع الرباط، المغرب، 2020، ط1.

-القواميس :

1. الجوهري اسماعيل، (الصاح) تاج اللغة والصاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور العطار، ج3، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ط3
2. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مج 1، دار صادر، بيروت، 1997، ط1.
3. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصاح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1988.

- 1- De Haedo (Fray Diego) ; Histoire des rois D'Alger traduite et annotée par H-d de Grammont, Alger,1881.
- 2- J-L-G Guyon ; Histoire Chronologique des épidémies du nord de L'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, Imprimerie du gouvernement Alger, 1855.
- 3- Dr Shaw(Thomas) ; Voyage dans la Régence d'Alger au 18 éme siècle Traduit de l'anglais par E Mac Cathy (1830), ALGER 2007.
- 1- Andrian berbrugger: Mémoire sur la Pest en Algérie, dans exploration scientifique de l'Algérie, sciences médicales, imprimerie Royale,Paris,t2.
- 2- Laugier de tassy ; histoire de la médecine arabe, paris, Edition loyale ,1992 .
- 3- Hilton Simpson; Arab medicine and surgery, a study of the healing art in Algeria, ed ,London oxford university press, 1922.
- 4- H.D.DE Grammont ; histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830) Ernest Leroux éditeur, paris,1887.

-المراجع باللغة الفرنسية :

1. L .Rinn ; le royaume d'Alger sous le dernier dey, présentation de a rebahi, Ed grand alger livre, 2005.
2. Walsin Esterhazy ; (1840), De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, éditeur, C. Gosselin, Paris.

-أطروحات الدكتوراه:

3. Jean Marchika, (1927), la peste en Afrique septentrionale -histoire de la peste en Algérie de (1363-1830), Université d'Alger -faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger.

-المقالات بالفرنسية :

1. Pierre boyer ,contribution a l'étude de la politique religieuse des turques dans la regence d'alger du 16 au 19 siècles in "romm",n01, 1966.
2. Isaac bloch.les israélites d'oran de 1792 A1815 .D'après des documents inédits.au jourdan éditeur .place du gouvernement.1886 .

-المواقع:

3. <https://www.who.int/ar/news/item/17-08-1442-who-calls-for-further-studies-data-on-origin-of-sars-cov-2-virus-reiterates-that-all-hypotheses-remain-open> تاريخ الدخول: 10 ديسمبر 2021.

الفهارس العامة:

1- فهرس الأعلام

2- فهرس القبائل والجماعات

3 فهرس الأماكن

4- فهرس المحتويات

فهرس الاعلام :

إبراهيم بن أحمد الثغري: ص97

ابن اسحاق : ص115

ابن الأحرش الدرقاوي: ص89-121

ابن البيطار: ص101-119

ابن الخطيب : ص17

ابن الشريف الدرقاي: ص87-126

ابن حجر العسقلاني: ص17-18-20-120

ابن خاتمة: ص 17

ابن خلدون: ص 17

ابن رشد: ص67

ابن زهر: ص67

ابن سماية: ص80

ابن سينا: ص99-100-115-119

ابن عبد الله: ص46

ابن منظور القيسي: ص16-119

ابن منظور: ص16-119

ابن هطال التلمساني: ص111

ابن يوسف الزباني: ص86-128-129

- أبو القاسم الزياني: ص 65-119-132
- أبو حامد المشرفي: ص 117
- أبو راس الناصري: ص 68-114-116-117-119-137-140
- أبو سالم العياشي: ص 115-122
- أبو عبيدة بن الجراح: ص 19
- أبي بكر الصديق: ص 42
- أبيقراط: ص 115
- أحمد باشا : ص 114
- أحمد بن سحنون الراشدي: ص 58-59-113-114-116-119
- أحمد بن قاسم البوني: ص 115
- أحمد بن مبارك السجلماسي : ص 120
- أحمد خوجة: ص 72
- استرهازي : ص 64-122
- الأغا بن عودة المزارى : ص 65-71-77-85-128-131
- الباي حسن بن موسى: ص 68
- الباي حسن: ص 71
- الباي خليل : ص 64-71-85-132
- الباي صالح: ص 104-108
- الباي عثمان باشا بن محمد الكبير : ص 66-67-71-86-106-129
- الباي مصطفى: ص 87

الباي يوسف ولد بوشلاغم: ص 63-131-145

البرزلي: ص 115

بكري: ص 94

بن زرفة : ص 137

بن طلحة الوهراني : ص 116

بوشناق : ص 90-94

بول لويس سيمون: ص 24

توفيق المدني: ص 44

الجاحظ: ص 115

جلال الدين السيوطي: ص 10-18-120

حمدان بن عثمان خوجة: ص 53-55-58-98-106-100-110-118-139

داوود الأنطاكي: ص 98-119

الداي إبراهيم: ص 64

الداي حسن باشا: ص 93-106

الداي حسين: ص 105

الداي علي بابا: ص 104

الداي علي خوجة: ص 104

الداي محمد : ص 76

الداي محمد بن عثمان: ص 71

الداي مصطفى باشا: ص 72-90-92

الرازي : ص99

زكرياء بن محمد الأنصاري السبكي (توفي 926هـ): ص120

الزيّاني : ص66-87

سعيد بن أحمد المقرئ : ص114

السنوسي: ص46-97

سي محمد بن عبد الله الشريف: ص72

سيدي لخضر بن خلوف: ص71

سيدي محمد زروق: ص103

الشاذلي: ص117

الشريف الزهار: ص79-128

شمس الدين المنبجي: ص120

الشيخ عبد اللطيف : ص115

صالح باي: ص80

عبد الرحمان بن عوف: ص20

عبد الرزاق ابن حمادوش: ص98-107-115

عبد القادر المشرفي: ص44

عبد القادر بن السنوسي: ص137

عبد الله بن عزوز المراكشي: ص112

عثمان بن سحنون الونشريسي : ص113

العربي المشرفي: ص21

الطار: ص115

عمر بن الخطاب: ص19-20-21

العنري: 87-107-108-109-110-118-128

محمد الرهوني الوزاني: ص120

محمد الكبير : ص38-43-59-75-94-108-110-111-113-128-143

محمد بن أحمد التميمي المقدسي: ص120

محمد بن أحمد الشريف الحسني : ص112

محمد بن العربي: ص126

محمد بن رجب الجزائري : ص115-118

محمد بن سليمان بن الصايم التلمساني: ص112

محمد بن عثمان خوجة: ص105

محمد بن على بن باديس الصنهاجي: ص116

محمد بن محمد بن أحمد "ابن مريم التلمساني: ص111

مرعي الكرمي الحنبلي: ص120

مسلم بن عبد القادر: ص64-67-128-129-132

مصطفى المسراتي: ص46

مصطفى بن عبد الله: ص137

مولاي سليمان: ص133

هارون الرشيد: ص99

الهاشمي: ص67-137

ولي الدين الملوي: ص120

يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي: ص62

فهرس القبائل والجماعات:

الأحرار: ص38-40

الأرستقراطية الدينية ص 43

الأرستقراطية: ص42-44

الأشراف والمرابطين: ص 48

الأشراف : ص 32

الأعيان : ص 32

الأغواطييين : ص 35

الأندلسيين : ص 32-44-45-46

الانكشارية : ص 33

أولاد أحمد : ص37

أولاد العباس : ص 37

أولاد دحو بن زرفة: ص38

أولاد سلامة : ص 37

أولاد سيد الشيخ: ص39

أولاد سيدي العربي : ص 37

أولاد سيدي العيد: ص 38

أولاد سيدي محمد بن يحيى: ص38

أولاد عبدالله : ص41

أولاد علي: ص41

أولاد قصير: ص38

البرانية : ص 32-34-46

البرجوازية الحضرية : ص 44-46

البرجية : ص 37

البساكرة : ص 35

بنو راشد :ص 38

بني راشد الزناتية :ص 41

بني شقران :ص 37

بني عامر العربية :ص 41

بني غدو : ص 37

بني فراح :ص 39

بني مزاب : ص 35

جندل :ص 38

جندل :ص 40

الحشم ص 37

الحضر : ص 34-42-43-45-46

حميان :ص 40

الدواير : ص 37

الرعية : ص 37 ص 43 ص 54

ريغة :ص 39

الزماله : ص 37

سجراة : ص 37

سكان الأرياف :ص 36

سويد :ص 40

شافع :ص41

شريريح : ص37

شنوا :ص39

أولاد خويدم :ص37

عكرمة :ص37

أولاد العباس : ص37

عبيد الشراقة :ص37

أولاد بوغرارة: ص37

صبيح :ص 37

العبيد السود : ص 35

العثمانيين : ص 32- 33- 34-35-36-39-40-41-49

العطاف :ص40

عمور :40

غمرة :ص41

فليقة :ص38-40

الفئة الحاكمة : ص 43

قبائل الغرابه: ص37

القبائل المتحالفة : ص38

القبائل المتحالفة: ص 38

القبائل المتعاونة مع الإسبان :ص40

القبائل المخزنية : ص

القبائل المستقلة : ص 39

قبيزة :ص41

الكراغلة : ص 32-33-34-42-43-44-45

كرشتل :ص41

المحال :ص38-55

مطماطة :ص40

المغاطيس : ص 40

المكاحلية : ص 37

النصارى : ص 32-36

هازج :ص38

هاشم :ص38

اليهود : ص 32-35-44-45-46-88-89-90-92-93

فهرس الأماكن:

آرزيو: 55-29

اسبانيا : د-62

اسطنبول: 78

الاسكندرية: 104-80-79-75-62

آسيا: 78

الأغواط: 79

افريقيا: ر-78

الأندلس: 37

أوروبا: 144-142-78-70

باب الجديد: 145

باب الواد: 145

باب عزون : 145

بايلك التيطري: 30-29-

بايلك الشرق: 145-118-108-107-81-79

-بايلك الغرب: ص: أ-ت-ث-ج-ح-د 15-28-29-36-37-38-39-43-45-47-48—49-52-

-53-54-55-58-59-61-62-67-69-70-71-73—74-75-77-80-81-86-87-90-

-92-94-95-96-102-110-111-119-122-125-126-128-129-131-132-135-

136-138-139-141-143-145-149-151-153

البحر المتوسط: 30-29

بسكرة: 119

بسكرة: 79

تاقدامت: 66-77

تلمسان: 29-31-34—36-38-48-49-52-53-55-56—61-62-64-65-66—71-
67—72-73-74-77-79-111-112-119-132-134-136-145

تموشنت: 49

توات: 50

تونس: 78-79-80-106-139-145

جبال العمور: 29

جبال القصور: 29

الجزائر: د-ر-ز-س-24--30—32-37-38-58-66-67-75-76-78-79-82-84-88-
89-90-96-97-98-99-102-104-105-106-109-115-118-120-121-122-123-
131-135-139-140-141-142-145-148-151-152

الدار البيضاء: 53

دار السلطان: 29-30

الرباط: 116

سبدو: 39

سعيدة: 29-30-39

السودان الغربي: 50-56-139

سيدي بلعباس: 53-

الشلف: 52

طلر ابلس: 79

طنجة: 65-133

عنابة: 80-105-106-142

غريس:52

غيليزان:49

فرنندة:29

فرنسا:د-139-142

قابس:79

قسنطينة:ج-80-79-106-107-118-127

قلعة بني راشد:-36-30-53-55

ليفورنة:90-91-92

مارسيليا:62-90-91-92-105-140

مازونة:30-31-35-36-49-55-58-88-136

متيجة:69

مجاة:49

المرسى الكبير:-43-45-55

مستغانم:36-31-38-47-49-53-62-63-71-131-135-136

مسرغين:52

المشرق الإسلامي:139

معسكر:31-38-49-53-58-64-66-67-70-72-73-74-77-87-111-114-132-135-

136

المغرب:أ-ذ-29-30-55-65-77-87-110-133-134-135-139-148

مغنية:55

مليانة:42

ندرومة:35-38-54-55

واد الشلف: 39-40

واد ميتة: 40

وجدة: 55

ورقلة: 79

الونشريس: 29

وهران: 28 ص: أ-د 29-31—38-39—45-43—52-54-55-56-58-59-61—64-62-
65-67-70-71-72-73-74-77-80-86-87-88-90-91-93-102-104-112-113-
116-128-131-132-133-134-135-136-145-152

	فهرس المحتويات
/	شكر وعرفان
/	إهداء
/	جدول المختصرات
13-1	المقدمة
26-15	المدخل: مدخل مفاهيمي حول الأوبئة والمجاعات
15	1- مفهوم الوباء والمجاعة والعلاقة بينهما
15	1-1 المجاعة
16	2-1 الوباء
17	3-1 الوباء في الطب
17	4-1 الوباء في المصادر الإسلامية
18	2- الفرق بين الوباء والطاعون
19	3- التعامل مع الوباء من المنظور الإسلامي
21	4- المفاهيم الطبية الحديثة
21	4-1- علم الأوبئة
23	4-2 مفهوم الطاعون
24	4-3 أنواع الطاعون
25	4-4 العلاقة بين الوباء والمجاعة
61-28	الفصل الأول : بآلك الغرب الجزائري "قراءة في المعطيات الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية
28	1_ الإطار الجغرافي لبآلك الغرب

فهرس المحتويات :

29	2- التقسيم الإداري للبايلك
32	3 _ التركيبة الاجتماعية في بايلك الغرب الجزائري
32	3-1- مميزات الوضع الاجتماعي في الجزائر العثمانية
35	3-2- تركيبة سكان المدن و الأرياف
35	3-2-1- سكان المدن
38	3-2-2- سكان الأرياف
45	4-المستوى المعيشي للسكان في بايلك الغرب
45	4-1 سكان المدن
49	4-2- سكان الارياف
52	5- الوضع الاقتصادي
52	5-1- النشاط الفلاحي
54	5-2-النشاط التجاري
56	5-3الضرائب
58	6-الوضع الثقافي
94-61	الفصل الثاني : التطور الكرونولوجي للأوبئة والمجاعات وأسباب حدوثها
65	1-أبرز محطات وباء الطاعون ببايلك الغرب الجزائري
67	2 -الأوبئة والأمراض الأخرى
68	2-1-وباء الجدري
68	2-2-وباء التيفوس
69	3 -أهم المجاعات ببايلك الغرب
75	4- عوامل ظهور الأوبئة وانتشارها
75	4-1-عدم الاحتراز من الوباء
76	4-2- تأثير الجانب المناخي

فهرس المحتويات :

78	4-3-الأسواق والقوافل التجارية
79	4-4-موسم الحج
81	4-5--الملابس والأغطية
81	4-6--الحملات العسكرية
82	5- خصائص الأوبئة وانتشارها
82	5-1-الخصائص السريرية لوباء الطاعون
82	5-2-طرق انتشار الطاعون
85	6-أسباب حصول المجاعات
85	6-1-حصول القحط وانتشار الجراد
86	6-2-تدهور الوضع الأمني
88	6-3-ملكية الأراضي
88	6-4-مساهمة اليهود في انتشار المجاعة:
123-96	الفصل الثالث: السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات
96	1- وضعية الطب ومتعلقاته خلال العهد العثماني
96	1-1-الممارسات الطبية في العهد العثماني
98	1-2-طرق العلاج المتبعة لدى السكان
103	2- دور السلطة والمجتمع في التصدي للأوبئة والمجاعات
103	2-1-تعامل السلطة مع الأوضاع الصحية
107	2-2-دور السلطة في التصدي للمجاعات
109	2-3-التفاعل الاجتماعي مع الأزمات الغذائية
111	3-أشهر الأطباء في بابل الغرب
111	3-1-تلمسان
112	3-2-وهران

فهرس المحتويات :

114	3-3-معسكر
114	3-4-أبرز الأطباء في الإيالة
116	4-الأوضاع الصحية والمعيشية في المؤلفات المحلية والأجنبية
117	4-1-المؤلفات المحلية
119	4-2-المؤلفات الإسلامية
122	4-3-المؤلفات الأجنبية
125-149	الفصل الرابع : تداعيات الأزمات الصحية والمعيشية على بابلك الغرب
125	1-الآثار الاجتماعية
125	1-1-الأزمات في الذاكرة الجماعية
126	1-2-الأزمات في الشعر الشعبي
127	1-3-الأزمات في المصادر المحلية
129	2-الآثار الديموغرافية
130	2-1-التداعيات على التعداد السكاني
137	2-2-التداعيات على الجوانب الديموغرافية الأخرى
139	3-الآثار الاقتصادية
144	4-الانعكاسات على المجال العسكري
146	5-الأزمات الصحية والمعيشية والدراسات التاريخية
147	5-1-صناعة الوباء"لمحة تاريخية"
151	الخاتمة
156	الملاحق
169	قائمة المصادر والمراجع
183	فهرس الأعلام
189	فهرس القبائل والجماعات

فهرس المحتويات :

193	فهرس الأماكن
197	فهرس المحتويات
	ملخص الأطروحة
	أولا- باللغة العربية
	ثانيا- باللغة الانجليزية